جنة الحيوان

في عهود الأنبياء

تأليف

المهندس أحمد الجبالي



جَنة الحيَوان

في عهود الأنبيَـاء

تأليف

المهندس أحمَد الجبَــالي

سكرتير عام محافظة الغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

هذه صفحة موجزة عن سيرة بعض الأنبياء والمرسلين في صورة حوار بين فتىٰ وشيخ في حديقة الحيوان الخيالية ليتيسر إجلاء الغموض في بعض المواقف وليتسع المجال للنقاش وإبداء الرأي بحرية مطلقة مع الالتزام بالنصوص القرآنية.. فإن كنت قد وفيت فهو فضل من الله، وإن كان غير ذلك، فمعذرة تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وإني أهدي كتاب هذا:

إلىٰ المثقفين من العلماء وأهل الفكر والرأي التقدميين.

وإلىٰ طلبة العلم علىٰ كافة مستوياتهم لينتفعوا بما فيه علمًا وأدبًا ودينًا.

وإلىٰ الأميين المؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لأنهم أولىٰ الناس بالرعاية والاهتمام ليتبصروا في دينهم وعقائدهم بأبسط الصور، وهذا ما اتبعته في كتابي قدر الاستطاعة ليكون مشكاة فيها مصباح يضيء.. فينير الطريق أمام القلوب المهتدية... والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ.

مهندس/ أحمد الجبالي

سكرتير عام محافظة الغربية

طنطا

تقـــديم

في مقام الأعمال الخالدة العظيمة التي تشرق علىٰ النفس الإنسانية بأسمىٰ قيم الحق والخير والجمال.. وفي مجال الإنتاج الديني المخلص الذي يقوم علىٰ صفاء الروح، ونقاء الطهارة، وطهارة الوجدان، وشمول المعرفة الدينية واتساعها.. يسرني أن أقدم كتاب «**جنة الحيوان في عهود الأنبياء**» للأستاذ أحمد الجبالي.

وإنني إذ أقدم في مزيد من الإعجاب والتقدير هذا العمل الديني الأدبي الموفق، لا أستطيع أن أزعم بأنه أول محاولة للحديث عن قصص الأنبياء وحياتهم ومعجزاتهم، وما تزخر به حياتهم الخصبة من أعمال جليلة وأحداث كبار، ولكن الذي أستطيع أن أؤكده أنه عمل يكاد أن يتميز تميزًا واضحًا في أسلوبه ومنهجه وطريقته الجذابة في علاج هذا الجانب المهم العظيم من تراث الإنسانية الديني المفعم بألوان من الكفاح البطولي (الرائع) في سبيل الدفاع عن المبدأ والانتصار للعقيدة والزخر بكل ما يلهم الروح أنبل المُثُل وأروعها وأسماها.

إن الأستاذ المؤلف لم ينهج في علاجه لحياة الأنبياء وسيرهم ومعجزاتهم ذلك الأسلوب المباشر الذي يعتمد علىٰ مجرد السرد والقصّ، ولكنه ينهج في هذا الأسلوب الحواري الذي يرسم الموقف، ويصور الحدث، ويثير المشكلة، ويلتمس الحل، وهذا الأسلوب يخدم الناحية الفنية، كما يخدم الناحية الموضوعية، فهو يعطي الحقيقة التاريخية، أو الموقف الأخلاقي، في إطار فني جميل يغري علىٰ متابعة القراءة والتعلق بالموضوع، هذا إلىٰ جانب تلك الطريقة الرائعة التي

يسلكها المؤلف دائمًا، وهي اعتماده المطلق علىٰ النص القرآني الكريم في تفسير المواقف وشرحها، وتوضيح كافة أبعادها وعناصرها، أي أنه يجعل هذا النص هو الأساس الركيز لكل شرح، وكل تفسير، وفي هذا ما يُعين علىٰ تثبيت الحقائق وفهمها والثقة بها.

وكتاب «جنة الحيوان في عهود النبياء» يتضمن أربعة عشرة قسمًا؛ وكل قسم من هذه الأقسام يعالج حياة نبي من الأنبياء المشاهير الذين وردت أخبارهم وسير حياتهم في القرآن الكريم، والحوار القائم بين الفتىٰ والشيخ في كل قسم من هذه الأقسام هو الإطار الذي التزمه المؤلف في تناول موضوعه، وهذا مما أضفىٰ علىٰ الكتاب طابعًا فنيًا وأدبيًا متميزًا، ومما هو جدير بالذكر والتقدير أن المؤلف كان حريصًا دائمًا علىٰ إبراز جوانب العظمة الإنسانية والقوة الأخلاقية في حياة الأنبياء وسيرهم، وهذا- من الناحية الموضوعية- يجعل للكتاب قيمته الرائعة في التوجيه الروحي والنفسي الذي يعتمد علىٰ المثالية الخلقية المستمدة من أروع تاريخ حافل بالأمجاد والبطولات والمفاخر، وهو تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

وما أجدر بشبابنا هذه الفترة التي نحن أحوج ما نكون فيها إلىٰ قوة البناء الخلقي، وسلامة الكيان النفسي والروحي، أن يستلهموا مُثُلهم وأخلاقهم وقيم سلوهم من حياة هؤلاء الأنبياء وتاريخهم الحافل العظيم حتىٰ يستطيعوا أن يخلقوا في كيان هذه الأمة القوة التي لا يمكن أن ترهب، والعزيمة الغلَّابة التي تتحطم علىٰ صخرتها أقسىٰ الرماح.

إنني مرة أخرىٰ أشهد بهذا العمل الجليل وأرجو لصاحبه الأستاذ أحمد الجبالي المزيد من التوفيق، والمزيد من الإنتاج الخصب في هذا المجال، الذي يبرز الصور الرائعة من تاريخنا الحافل بكل ما هو خير، وكل ما هو نبيل وعظيم.

دكتور/ عبد الحكيم بلبع

أستاذ تاريخ الأدب العربي

كلية دار العلوم– جامعة القاهرة

٢٨ أغسطس سنة ١٩٦٧

((جنة الحيوان))

قال الفتىٰ : وهل أستطيع أن أرىٰ جنة الحيوان المقدس؟

قال الشيخ : نعم. وتستطيع أن تراها إذا سرت معي ودخلنا هذه الحديقة، واسأل عما شئت لتعلم عن معجزات الأنبياء وآيات الله ما يبهر العقول ويحير الأفكار، فهي مظاهر الأسرار المكنونة في علم الله اللدني.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ حديقة كبيرة مكتوب علىٰ بابها بحروف من نور «جنة الحيوان المقدس».

فقال الشيخ: مُرْ حارسها يفتحها وتنقَّل بالنظر بين أرجائها فستشاهد ما تبغي.

قال الفتىٰ : هاهو الحارس قد فتح بابها المصفح برقائق من الذهب ومحلىٰ بفصوص من الزمرد والماس. ومن نظرة عامة فإنها جنة عالية، قطوفها دانية، أشجارها باسقة، وزهورها يانعة. وأرىٰ الماء يجري فيها بأديمه الفضي خلال أنهار طولية، وبحيرات دائرية، وعلىٰ جوانبها طرقات مرصوفة بالزبرجد والمرجان، تدور تلك الطرقات وتتقابل مع ممراتها في أشكال هندسية رائعة. وتتنقل الأطيار بألوانها الزاهية الجميلة علىٰ أفنانها الفارعة، فسبحان من أبدع خلقها وقدَّر فيها أقواتها لما يقطنها من الحيوان والطيور والأسماك والزواحف.

قال الشيخ : حسنًا ما رأيت، وأظنك ترىٰ اقسامًا في هذه الحديقة منفصلة عن بعضها فابدأ من أولها فهي مرتبة حسب خلقها الزمني في الدنيا.

قال الفتىٰ : فعلًا.. أرىٰ علىٰ كل قسم سورًا من قضبان، واحد من ذهب، وآخر من فضة علىٰ التوالي، ويعلو كل قسم كتابة تشير إلىٰ تعريفه.

❋ ❋ ❋

القسم (١)
عهـــــد آدم

قال الفتىٰ : وأول قسم مكتوب عليه بحروف من نور «عهد آدم» عليه السلام. وإني أرىٰ خليطًا من الحيوان والطيور والزواحف والأسماك- فما شأنها.

قال الشيخ : عندما خلق الله آدم

﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾[١].

قال الفتىٰ : لقد أطاع الله أمر الله وسجدوا فما علاقة ذلك بتلك المخلوقات.

قال الشيخ : صبراً.. بني. فإني آتيك بالسبب.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة ص: ٧١-٧٤.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

فأراد الله أن يقيم الحجة بأفضلية آدم علىٰ الملائكة ويكون ذلك بالدليل العملي- فعلَّم الله آدم الأسماء لجميع المخلوقات ثم قال للملائكة:

﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾(١).

فقالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾(٢).

فقال تعالىٰ: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾(٣).

«ولما أنبأهم بأسمائهم»

قال الله للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(٤).

اقتنعت الملائكة بأفضلية آدم عليهم وأنه أحق بالخلاقة علىٰ الأرض منهم لأنه تميّز وتحقق بمعرفة الأسماء لجميع المخلوقات، وهذه هي تلك الحيوانات والطيور التي كانت تدب علىٰ الأرض في ذلك الوقت عند خلق آدم وتشرفت بالخطاب الأول فصارت مقدسة.

قال الفتىٰ : وماذا حدث لإبليس بعد أن امتنع عن السجود لآدم؟

قال الشيخ : قال الله ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: ٣١-٣٢.

(٢) سورة البقرة: ٣٢.

(٣) سورة البقرة: ٣٣.

(٤) سورة البقرة: ٣٣.

قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[2].

قال الله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا «أي الجنة» فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3].

قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4].

قال الله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[5].

قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[6].

قال الله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[7].

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في ركن من هذا القسم قفصًا من حديد تُسجن فيه حيّة كبيرة رقطاء تنفث حممًا وتتلوىٰ ألمًا فما قصتها..؟

---

(١) سورة ص: ٧٥.
(٢) سورة ص: ٧٦.
(٣) سورة ص: ٧٧-٧٨.
(٤) سورة ص: ٧٩.
(٥) سورة ص: ٨٠-٨١.
(٦) سورة ص: ٨٢-٨٣.
(٧) سورة الحجر: ٤١-٤٣.

قال الشيخ : قلت لك إن الله قد طرد إبليس من الجنة وهبط منها إلىٰ الأرض مذمومًا مدحورًا وعليه اللعنة إلىٰ يوم الدين. فعزّ عليه أن يترك آدم ينعم بالجنة ويخرج هو منها بسببه ويبقىٰ ملعونًا علىٰ الأرض إلىٰ الأبد، ثم في الآخرة يُخلد في جهنم أبد الآبدين. فتحايل علىٰ تلك الحيّة الرقطاء وتلبّس في جسمها ودخل الجنة يغوي آدم وحواء ليعصيا ربهما انتقامًا لنفسه فيما أصابه من لعنة وطرد من الجنة بسبب آدم.

إذ قال الله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ...﴾[1].

قال إبليس: ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَىٰ﴾[2].

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

(١) سورة الأعراف: ١٩-٢٠.
(٢) سورة طه: ١٢٠.

الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1].

قال الفتىٰ : ولماذا صدّق آدم إبليس مع أن الله حذره؟

قال الشيخ : يرجع ذلك لسببين أحدهما أن آدم كان علىٰ الفطرة وصدّق إبليس لما قاسمه أي حلف له قسمًا بالله- فلم يساوره شك في قول إبليس ولم يكن يتصور أن أحدًا في الجنة يُقسم بالله كذبًا واحتيالاً.

أما السبب الآخر فهو قدر ومقدور علىٰ آدم ليخرج بسبب من الجنة حتىٰ لا يستشعر أنه ظُلم بإخراجه من الجنة وكان هذا مقدرًا عليه من الله في سابق علمه ولم يكن في الأصل لأجل إساءة آدم أو اعتباره قد اقترف الذنب حقيقة بأن عصىٰ ربه وغوىٰ ولكنها كانت أسبابًا ظاهرية ليهبط آدم إلىٰ الأرض ليعمرها بنسله إلىٰ قيام الساعة ولو لم يأكل من الشجرة لظل في الجنة حياة خالدة كالملائكة ويكون قد عصىٰ الإرادة السابقة لله؛ وهي لا يمكن عصايتها فالعبد مطيع للإرادة الإلهية ومُسير من الله في جميع ما يفعله وغن عصىٰ فإنما يعصىٰ الأمر فقط؛ إذ الحركة والسكون بيد الله فلو علم آدم حين أكل من الشجرة أنه سينزل بسببها إلىٰ الأرض ويعمرها ويخرج

---

(١) سورة الأعراف: ٢١-٢٥.

من نسله الأنبياء والمرسلين والمؤمنين.. لأكل الشجرة جميعها فكان ظاهرها معصية وباطنها رحمة لآدم ليكون خليفة الله في الأرض، كما أن إبليس كان تأثيره علىٰ حواء أكثر وأسرع من آدم. وبذلك كان لحواء دور هام في هذا الموضوع.

قال الفتىٰ : وما تلك الشجرة التي أكل منها آدم وكانت السبب في كل هذا؟

قال الشيخ : يُقال إنها الحنطة وبمجرد أن أكل منها تكثف جسمه وتغيّر حاله وطبيعته وتولّد في جسمه الدم والبول والغائط، وليس في الجنة مكان لمثل هذه الأشياء، كما تولّد أيضًا بهضه الأكلة كل أنواع الحواس المعنويّة والحسيّة مثل النوم ولذة الجماع والأمراض والخوف والخجل والتمييز لستر العورة، ثم هبط آدم وحواء إلىٰ الأرض.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ أيضًا في هذا القسم «غرابًا» يسير بمفرده مزهوًا. فما قصته؟

قال الشيخ : إن له قصة حكيمة أرسله الله إلىٰ قابيل ابن آدم لما قتل أخاه هابيل وكانت أول جريمة قتل في الدنيا بين بني آدم علىٰ سطح الأرض.

قال الفتىٰ : وكيف كان ذلك؟

قال الشيخ : بعد هبوط آدم وحواء علىٰ وجه الأرض كانت تلد حواء في كل بطن توأم: أحدهما ذكر والآخر أنثىٰ، وكان التزاوج بين الأبناء بالتبادل بين التوائم. أي إن الذكر في أحد البطون يتزوج الأنثىٰ في البطن الأخرىٰ، وحدث أن هابيل عارض في أن أخاه يتزوج من توأمته لأنها كانت أجمل من توأمة هابيل وتخاصما إلىٰ أبيهما آدم فقال لهما فليقدم كل منكما قربانًا إلىٰ الرب. فقربا قربانًا فتُقبل من أحدهما وهو هابيل إذ قم كبشًا فرُفع إلىٰ السماء، ولم يُتقبل من الآخر وهو «قابيل» حيث قدم بعض الحبوب.

قال قابيل: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ...

قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[١].

«قابيل» ﴿طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ- «هابيل»- فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾[٢].

(١) سورة المائدة: ٢٧-٢٩.

(٢) سورة المائدة: ٣٠-٣١.

فقال قابيل: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1].

وهذه كانت أول حادثة قتل استشهد فيها أحد أبناء آدم وصعدت روحه الطاهرة وكانت أول روح تُرفع إلىٰ السماء من بني آدم تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

❋ ❋ ❋

(١) سورة المائدة: ٣١.

القسم (٢)

عهـــد نـــوح

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ «عهد نوح» عليه السلام. وإني لأرىٰ في هذا القسم سفينة وعليها من كل زوجين اثنين من الحيوانات والطيور فما شأنها؟

قال الشيخ : إنها سفينة نوح عليه السلام التي حملته وقت الطوفان، هو ومن آمن معه من قومه، وزوجين من كل دابة علىٰ الأرض أو طير يطير بجناحيه إذ قال الله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

قال الفتىٰ : ولماذا أنذرهم؟

قال الشيخ : لأنهم كانوا يشركون بالله ويعبدون الأصنام والأوثان.

فقال نوح: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

قال الملأ: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[٣].

---

(١) سورة نوح: ١.
(٢) سورة نوح: ٢-٤.
(٣) سورة هود: ٢٧

قال نـوح: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمـًا تَجْهَلُونَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا فعل نوح معهم بعد ذلك؟

قال الشيخ : قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً * مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾[2].

قال الفتىٰ : لقد كان نوح يقرع قومه بالحجة القوية ويذكّرهم بنِعَم الله وفضله عليهم.. فماذا فعل معهم بعد ذلك؟

قال الشيخ : قال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعـًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾[3].

---

(١) سورة هود: ٢٩.

(٢) سورة نوح: ٥-١٤.

(٣) سورة نوح: ٢١-٢٣.

قال الفتىٰ : وما تلكم الأسماء؟

قال الشيخ : إنها أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها علىٰ أنها آلهة وقد ضلوا ضلالاً مبينًا..

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(١).

قال الفتىٰ : كأن نوحًا قد يئس من هداية قومه فلم يؤمن له إلا قليل.

قال الشيخ : نعم.. ولهذا توجه نوح إلىٰ الله وقال:

﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾(٢).

فقال له الله: ﴿اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة هود: ٣٢-٣٦.

(٢) سورة نوح: ٢٦-٢٧.

(٣) سورة هود: ٣٧.

قال الفتىٰ : وهل كان نوح يعرف صناعة السفن؟

قال الشيخ : لا لم يكن له معرفة سابقة ولكن الله كان يرشده، ولهذا يقول الله عن سفينة نوح ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[١].

قال الفتىٰ : ولماذا كانوا يسخرون من نوح وهو يصنع السفينة؟

قال الشيخ : لأنه يصنعها أمام داره في وسط القرية، ومن عادة بناء السفن أن تكون علىٰ شواطئ الأنهار والبحار. فكان القوم يسخرون من نوح لهذا السبب، ويتساءلون هل سيطير بها في الهواء أو سيجرها بالثيران فليس لها عمل علىٰ اليابسة.

قال الفتىٰ : وكيف جاء الطوفان هل من مطر السماء أم من مياه الأرض؟

قال الشيخ : من الاثنين معًا.. فلقد أوحىٰ الله إلىٰ نوح ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[٢].

---

(١) سورة هود: ٣٨-٣٩.

(٢) سورة هود: ٤٠-٤٢.

قال الفتىٰ : ومَنْ مِنْ أهل نوح الذي سبق عليه القول؟

قال الشيخ : إنه ابنه وامرأته كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

قال الفتىٰ : لقد أهلك الطوفان جميع البشر والحيوان والطير علىٰ الأرض.

قال الشيخ : نعم... وبدأت الدنيا تعمر مرة ثانية بما كانت تحمله تلك السفينة المقدسة من المؤمنين الآدميين والحيوانات

(١) سورة هود: ٤٢-٤٨.

والوحوش والطوير التي كانت في السفينة، وهي التي تراها أمامك في هذا القسم.

قال الفتىٰ : ولماذا تخلّف ابن نوح عن ركوب السفينة؟

قال الشيخ : لقد بيَّن الله ذلك عندما..

﴿نَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

قال الفتىٰ : وهل غرقت أيضًا زوجته؟

قال الشيخ : نعم لقد غرقت زوجة نوح مع الغارقين.. «بل جعلها الله مثلاً للزوجة المنحرفة عن طاعة زوجها وعدم الإيمان به فندَّد القرآن بهذا السلوك الشاذ الذي لا يستقيم مع زوجة نبي لأن المفروض أن تكون زوجة النبي أو الرسول عونًا له علىٰ نشر دعوته وتكون هي أول المؤمنين به وتدافع عنه وعن دعوته بكل ما تملك مثل أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوجة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ولكن زوجة

---

(١) سورة هود: ٤٥-٤٦.

(٢) سورة هود: ٤٧.

سيدنا نوح كانت علىٰ العكس من ذلك لم تؤمن بدعوة زوجها وكانت تشايع أعدائه من قومه الكفار الذين كانوا يسخرون منه ويصفونه بالجنون. ولذلك سجَّل الله في القرآن هذا الموقف من زوجة نوح وجعل مثواها جهنم وبئس القرار ولم يشفع لها كونها زوجة نبي بل وأصبح مثلًا سيئًا للمرأة الخارجة عن طاعة زوجها والإيمان بدعوته، وفي ذلك يقول الله «ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين»[1].

❁ ❁ ❁

(١) سورة التحريم: ١٠.

القسم (٣)

عهد صالح

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ «عهد صالح» عليه السلام.

وإني أرىٰ ناقلة ضخمة الجسم جدًّا وفصيلتها- أي ابنها- بجوارها، فما قصتها؟

قال الشيخ : إنها ناقلة صالح أعجوبة الزمن علىٰ مرّ الدهور فلم يوجد مثلها منذ بدء الخليقة لا في الحجم ولا في الطباع فقد كانت آية صالح ومعجزته الوحيدة لدىٰ قومه (آل ثمود) فقد كانوا يعبدون الأصنام الأزلام. فأخذ صالح يهديهم لعبادة الله ويبعهدهم عمَّا يعبدون من الأوثان.

فقال المستكبرون من قومه: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾[1].

ولِمَ لَمْ تنزل النبوة علىٰ رجل منهم عظيم؟

وقالوا لمن استضعف منهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[2].

فقال المؤمنون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[3].

---

(١) سورة ص: ٨.

(٢) سورة الأعراف: ٧٥.

(٣) سورة الأعراف: ٧٥.

فقال صالح: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾[1].

قالوا: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[2].

قال صالح: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[3].

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

قال الفتىٰ : لقد كانت حجة صالح لقومه مقنعة فهل اتبعوه وآمنوا بربه؟

قال الشيخ : لا..

وقالوا: ﴿ أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾[5].

قال الفتىٰ : كأن قوم صالح تحدوه أن يأتيهم بآية أو معجزة تدل علىٰ صدق نبوته.

---

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة هود: ٦٢.

(٣) سورة هود: ٦٣.

(٤) سورة الشعراء: ١٤٤-١٤٥.

(٥) سورة الشعراء: ١٥٣-١٥٤.

قال الشيخ : نعم وتلك عادة القوم مع كل نبي أو رسول يطالبوه بالمعجزات ثمنًا لتصديقه واتباعه فطلبوا منه أن يُخرج لهم من الجبل ناقة عشارًا، ولهذا فإن صالحًا أخرج لهم هذه الناقة من شق في الجبل بأمر الله وهي بهذه الضخامة الكبرىٰ فهي ليست كالإبل العادية. ثم ولدت فصيلها أي سقيها بعد ذلك.

وقال لهم صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۞ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

قال الفتىٰ : إنها حقًا ناقة مخيفة فقد يعادل حجمها أكثر من مائة ناقة.

قال الشيخ : ولذلك كانت عند شربها في يومها المخصص لها تأتي علىٰ ماء البئر كله وتحرم مواشي القوم من الشرب في ذلك اليوم وفقط تشرب المواشي في اليوم التالي، وقد كان الحال هكذا أيضًا في المرعىٰ فكانت إذا نزلت حقلًا لترعىٰ جفلتمنها المواشي وهربت وكانت تُدِّر من اللبن قدر الماء الذي تشربه وتسقي أهل القرية كلهم، وهذا ما أوغر صدر القوم الكافرين عليها لأجل حيواناتهم. فتآمروا علىٰ الناقة (وعقروها) فأصبحوا نادمين.

فقال صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2].

---

(١) سورة الشعراء: ١٥٥-١٥٦.

(٢) سورة هود: ٦٥.

قالوا لصالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾(١).

قال الفتىٰ : لقد تحكمت الأزمة بين صالح وقومه واشتد الخلاف بينهم بعد أن عقروا ناقته.

قال الشيخ : بل وأكثر من هذا فلم يكتفوا بعقر الناقة ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(٢).

وفي ذلك قال الله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ* فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾(٣).

قال الفتىٰ : ماذا أصاب هؤلاء القوم المفسدين؟

قال الشيخ : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ «أي الصاعقة» فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٤).

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة النمل: ٤٧.
(٢) سورة النمل: ٤٨-٤٩.
(٣) سورة النمل: ٥٠-٥١.
(٤) سورة الأعراف: ٧٨.
(٥) سورة النمل: ٥١-٥٢.

قال الفتىٰ : لقد نال القوم جزاءهم وبئس المصير.. وهل عقروا فصيل الناقة؟

قال الشيخ : لقد هرب فصيلها وجرىٰ حتىٰ دخل الشق في الجبل الذي خرجت منه أمه، وضم عليه الجبل الشق وبقي فيه، ويقال إنه لن يخرج إلا في آخر الزمان، وأنه من علامات الساعة.

❁ ❁ ❁

القسم (٤)

عهد إبراهـــيم

قال الفتىٰ : ننتقل الآن «إلىٰ عهد إبراهيم خليل الرحمن».
وإني أرىٰ «أربعة من الطير» زغب الحواصل خضراء مطوقة تهفو علىٰ القفص أحيانًا وتتركه.
فهل لنا يا تُرىٰ أن نسأل الخبر؟

قال الشيخ : لقد أوحىٰ الله إلىٰ نبيه إبراهيم أن الناس سيبعثون في الآخرة أحياءً بعد موتتهم الأولىٰ، ويحاسبهم علىٰ أعمالهم في الدنيا ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[1] فتحركت في نفسه رغبة التحقق من عملية النشور هذه.. لهذا ..

قال إبراهيم : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ
قال الله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ
قال إبراهيم : بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي
قال الله : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[2].

---

(١) سورة الزلزلة: ٧-٨.
(٢) سورة البقرة: ٢٦٠.

قال الفتىٰ : لقد أصبحت هذه الطيور الأربعة مقدسة لأنها كانت التجربة العملية فقد ذُبحت وقُطعت أجزاء ووُضعت أجزاؤها المختلفة علىٰ الجبال المتباعدة، ثم نادىٰ عليها، فجُمعت الأجزاء بعضها إلىٰ بعض وصارت طيرًا كما كانت؛ ليقتنع إبراهيم بعملية البعث بعد الموت، وتشرفت بمشاهة الخطاب المقدس بين إبراهيم وربه.

قال الشيخ : نعم.. فقد نطقت صوابًا.

قال الفتىٰ : وإني أرىٰ أيضًا بعوضة تطير متنقلة لا تسكت عن الحركة فما شأنها؟

قال الشيخ : إنها البعوضة التي سلَّطها الله علىٰ الملك النمرود في بابل الذي حاجَّ إبراهيم في ربه وهو صبي حدث عندما سمع بأعماله ودعوته لعبادة الواحد القهار ونبذ ما دون ذلك من عبادة الأصنام أو عبادة النمرود.

قال الفتىٰ : وكيف كان ذلك؟

قال الشيخ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[1].

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[2].

(١) سورة الأنبياء: ٥١.

(٢) سورة الأنعام: ٧٤.

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا* يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[1].

قال آزر: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2].

قال إبراهيم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[3].

قال الفتىٰ : وهل كان إبراهيم يدعو أباه فقط للإيمان بالله؟

قال الشيخ : لا.. ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾[4].

قال الفتىٰ : وهل اكتفىٰ بذلك إبراهيم مع قومه؟

---

(١) سورة مريم: ٤٢-٤٥.

(٢) سورة مريم: ٤٦.

(٣) سورة مريم: ٤٧-٤٨.

(٤) سورة الأنبياء: ٥٢-٥٦.

قال الشيخ : لا... بل قرر في نفسه أن يجعل حجته عملية وأقسم ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(١).

قال قومه: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾(٢).

قال الفتىٰ : أظن ليحاكموا إبراهيم لأنه اتُهم بتكسير الأصنام مع أنه صبي صغير.. وليس برجل مما يوجب محاكمته.

قال الشيخ : لا.. ولكن الأمر كان أكبر من فعلة صبي صغير لأنه يتعلق بآلهتهم التي يعبدونها فيجب أن يحيطوها بالقداسة والتكريم ولا يمسها أحد بسوء... وحاكموه فعلًا.

فقالوا له : ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنبياء: ٥٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٥٩-٦١.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٢-٦٥.

فقالوا له : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1].

قال الفتىٰ : كأن إبراهيم قد كشف نفسه بهذا التسفيه لأصنامهم واعتبروه أنه هو الذي قام بتكسير أصنامهم.

قال الشيخ : نعم هذا حق ولكنه كان حسن النية لأنه أراد أن ينتهز الفرصة لما اعترفوا بأن هذه الأصنام لا تنطق فأراد أن يعرفهم بأنها لا فائدة منها ويقيم الحُجة بوجود الله الواحد ليعبدوه- ولم يكتفِ بذلك بل زاد علىٰ ذلك في التقريع بأصنامهم.

وقال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وهنا توجَّه إبراهيم إلىٰ ربه بالدعاء:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنْ الضَّالِّينَ * وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ *

(١) سورة الأنبياء: ٦٥-٦٧.

(٢) سورة الشعراء: ٧٢-٧٧.

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا فعلوا بعد ذلك مع إبراهيم؟

قال الشيخ : قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2].

قال الفتىٰ : أَيُحَرِّقُون صبيًا صغيرًا قال ما قال أو فعل ما فعل..؟

قال الشيخ : لقد كان الأمر يتعلق بعقيدتهم وآلهتهم ولا يقبلون أن يمسها أحد بأذىٰ. ألم يقل له أبوه أنه سيرجمه ويطرده إن استمر في دعوته لله الواحد.. فكيف بالقوم الذين قرروا أن يحرقوه حيًّا.. وفعلًا أوقدوا نارًا عظيمة وألقوه فيها ولكن رحمة الله تداركته عند ذلك.

قال الفتىٰ : وكيف ذلك وقد أُلقي في وسط النار ولهيبها يستعر؟

قال الشيخ : قال الله : ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ﴾[3].

قال الفتىٰ : هذا هو الحل الوحيد الحتمي في ذلك الوقت.. فما يخطر علىٰ بال إنسان أن تحصل مثل هذه المعجزة.

قال الشيخ : لقد كانت معجزة حقًّا لإبراهيم، فقد صارت النار لا شيء بالنسبة له. وقد سُلب منها قوة الحرق، وكان إبراهيم

(١) سورة الشعراء: ٨٣-٨٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٨.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩-٧٠.

يتجوّل في وسط النيران كأنه يتنزه. وقد كانت شدة النار وعظمها دخانها حجابًا بين إبراهيم وقومه فلم يستطيعوا أن يتبيَّنوا شيئًا، وظنوا أنه أصبح رمادًا محترقًا.. فما أشد عجبهم بعد أن خمدت النيران ووجدوه حيًّا سليمًا معافىٰ من كل سوء فعقدت المفاجأة ألسنتم واسترهبوه وخشوه فعلًا، وفقد حذروا قومهم من الاستماع إلىٰ دعوته حتىٰ لا يتبعه أحد منهم.. وقد حاجه قومه..

قال: ﴿أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾[1].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2].

قال الفتىٰ : لكن كيف حاجّ الملك النمرود إبراهيم بعد ذلك...؟

قال الشيخ : بعد معجزة النار التي لم تحرق إبراهيم استدعاه «الملك النمرود» ودار بينهما الحديث...

قال إبراهيم : رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

(١) سورة الأنعام: ٨٠-٨١.
(٢) سورة الأنعام: ٨٣.

قال الملك : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾
قال إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ﴾.. فعجز الملك عن الرد... ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

قال الفتىٰ : وكيف يقول الملك النمرود أنه يُحيي ويُميت وهو لا يقدر علىٰ ذلك؟

قال الشيخ : طبعًا ليست له هذه القدرة أن يُحيي أو يُميت ، ولكنه كان يقصد أنه كملك يستطيع أن يحكم علىٰ شخص ما بالقتل فهو بهذا يتصف بأن يقدر أن يميت، ثم إذا عفا عن الشخص فكأنه أحياه. وهذا بالطبع بعيد جدًّا عن الحقيقة فلن يستطيع أن يُحيي شخصًا من الأموات أو يميت إنسانًا حيًّا دون أن يستعمل معه أدوات القتل المعروفة.

قال الفتىٰ : وماذا فعل الملك مع إبراهيم بعد ذلك؟

قال الشيخ : لقد كان القوم يعبدون الملك النمرود أيضًا مع آلهتهم من الأصنام فخشي الملك أن يؤمن الناس بدعوة إبراهيم وينصرفوا عن عبادته مع الأصنام، فأمر جنده أن يكونوا عيونًا عليه يمنعون الناس من القُرب منه ويُسفهون آرائه وينذرون الناس بالعذاب الأليم لكل من يسمع لإبراهيم، بهذا نجح الملك في تضييق الخناق علىٰ إبراهيم وحصر

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

دعوته في أفراد قليلة، فلم يؤمن له غير زوجته سارة وابن أخيه لوط.. لهذا انتقم الله لإبراهيم نبيه من الملك النمرود بأن سلَّط عليه «بعوضة» صغيرة سكنت داخل أنفه فأقضت مضجع الملك فما كان يستريح إلا إذا ضُرب بالنعال علىٰ أم رأسه وظل هكذا معذبًا بهذه النقمة حتىٰ مرض ومات بسببها.

قال الفتىٰ : كأن والد إبراهيم لم يؤمن به.

قال الشيخ : نعم لقد ظل علىٰ الكفر، ويقول الله في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

قال الفتىٰ : وهل ظل إبراهيم هكذا محاصرًا في دعوته واقتصرت عليه وزوجه وابن أخيه لوط...؟

قال الشيخ : لا، بل هاجر من أرض الكلدانيين وموقعها جنوبي العراق عند ملتقىٰ نهري دجلة والفرات.. إلىٰ أرض كنعام بأرض الشام وهي فلسطين، وكان إبراهيم في ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره.
وعاش هناك في أمان يدعو لدين الله وعبادة الله الواحد الأحد، وبارك له الله في أمواله وتكاثرت أغنامه وإبله لأن أرض فلسطين جيدة المرعىٰ.

---

(١) سورة التوبة: ١١٤.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ كبشًا سمينًا ذا قرنين، أحدهم من الذهب والآخر من الفضة- فما قصة ذلك..؟

قال الشيخ : إن هذا الكبش ذا القرنين، قرن الفداء وقرن القربان.

قال الفتىٰ : وما معنىٰ ذلك في القرنين...؟

قال الشيخ : معنىٰ قرن القربان أن ذلك الكبش هو نفسه الذي سبق أن قدَّمه «هابيل» ابن آدم قربانًا لله فتقبله ربه ورفعه إلىٰ السماء وظل الكبش في الجنة حتىٰ نزل أخيرًا ليكون الفداء لإسماعيل بن إبراهيم من الذبح، وهذا يرمز له قرن الفداء الذهبي.

قال الفتىٰ : ولماذا كان الذبح لإسماعيل بن إبراهيم...؟

قال الشيخ : لقد رزق الله «إبراهيم» وقد بلغ التسعين عامًا تقريبًا بمولوده البكر «إسماعيل» من زوجته «هاجر» جارية زوجته الأولىٰ سارة التي كانت عقيمًا وقد بلغت سن الشيخوخة فسمت لإبراهيم أن يدخل بجاريتها «هاجر» المصرية عسىٰ أن تلد لهم ولدًا وقد تم ذلك بوحي من الله.

قال الفتىٰ : ولكن لماذا يُقدم إبراهيم علىٰ ذبح ابنه الوحيد إسماعيل وقد رُزق به علىٰ كِبَر؟

قال الشيخ : تلك محنة أخرىٰ ابتلىٰ الله بها إبراهيم ليمتحن بها إيمانه وطاعته وصبره علىٰ البلاء وتسليمه للقضاء- فقد تجاوز إبراهيم المائة عام وكان ابنه إسماعيل صبيًّا لا يتجوز الثانية

عشر من عمره، ثم رأىٰ إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه إسماعيل فأخذ ابنه وصعد به إلىٰ الجبل عند موقعه الآن في مِنىٰ بجوار مكة، ويصف الله هذ الحادثة بقوله:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ...

قال إبراهيم : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ

قال إسماعيل : يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ الصَّابِرِينَ

« فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ »

ناداه الله : ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1].

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

قال الفتىٰ : إنه ابتلاء فظيع حقًّا أن يُقدم أب علىٰ ذبح ابنه ووحديه بنفسه ولا يجزع ثم في الوقت نفسه يستسلم الصبي للذبح برباطة جأش ولم يهرب من أبيه- إنها لساعة العُسرة حقًا بين رجل وابنه فهل يحدث مثل هذا بين كافة الناس؟

---

(١) سورة الصافات: ١٠٤-١٠٧.

(٢) سورة الصافات: ١١١.

قال الشيخ : لا يا بني. لا يحدث هذا بين البشر الآن وإن تلك كانت مقامات النبوة لا تُقاس بها أحوال الناس عامة لأنهم أولو العزم من الرسل والنبيين. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾[1]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾[2].. ومع هذا كله فإنه عندما همَّ إبراهيم بذبح ابنه هرعت جميع ملائكة السماء يسجدون تحت العرش يسبحون ويسألون الله أن يرحم إبراهيم خليله ويرفع عنه هذا الابتلاء ويفديه بآخر عنه. واستغاثت الملائكة بأرواح النبيين وأولياء الله الصالحين في برزخها ولبت جميعها النداء تستشفع ربها في إسماعيل حتىٰ استجاب الله لدعائهم وفداه في الظاهر بكبش أنزله من الجنة فذبحه إبراهيم وأصبحت هذه سُنَّة مقدمة التزم بها العرب في تقديم هذه الذبيحة كل عام في عيد الأضحىٰ ويؤديها جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويلتزم بها حجاج بيت الله الحرام في مِنىٰ بعد أداء الحج في جبل (عرفة).

قال الفتىٰ : لقد كان إبراهيم مقيمًا بأرض فلسطين ولكن ما الذي جاء به وبابنه إسماعيل إلىٰ جبال مكة.

---

(١) سورة مريم: ٤١.

(٢) سورة مريم: ٥٤.

قال الشيخ : لك الحق في سؤالك هذا يا بني. فإن أرض فلسطين قد أصابها جدب في إحدىٰ السنين فرحل إبراهيم وسارة ومعهما الأغنام والمواشي إلىٰ أرض مصر طلبًا للرعي.

فلما وصلا إلىٰ عاصمة مملكة مصر سعىٰ رجال الملك إليه بالسوء ضد إبراهيم وأخبروه أن معه امرأة وزينوا له جمالها فأمر الملك بضمها إلىٰ زوجاته بعد أن سأل إبراهيم عنها فقال له إنها أخته. ولكنه في تلك الليلة رأىٰ الملك من يخبره أن تلك المرأة هي زوجة إبراهيم وحذره من الاقتراب منها، ولما أصبح الملك رد سارة إلىٰ إبراهيم وعاتبه علىٰ ذلك ومنحه جارية لها هي (هاجر) المصرية، وكذلك أهداه أغنامًا وأموالًا، وبعد أن أن إبراهيم في مصر بضع سنين رجع إلىٰ فلسطين. وقد كانت (سارة) زوجته عاقرًا؛ وقد شاخ إبراهيم وهرمت كذلك «سارة» فسألته زوجته أن يدخل بجاريتها عساها تلد لهم ابنًا. وفعلًا تم ذلك وكان إبراهيم في التسعين من عمره، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولدها البكر «إسماعيل» وكان ذلك بأرض فلسطين، ولكن سارة غارت من «هاجر» ووليدها إسماعييل فطلبت من إبراهيم أن يبعدهما عنها فلم تعُد تطيق رؤية هاجر وابنها إسماعيل، وأطاع إبراهيم «سارة» زوجته وحمل هاجر وإسماعيل وسافر بهما بوحي من الله حتىٰ أنزلها في البقعة المباركة وهي في موقع مكة المكرمة الحالية. وهو مكان تحوطه الجبال لا زرع فيه ولا ماء

وتركها هناك كأمر الله له ومعها بعض الزاد وقليل من الماء. وعاد مسرعًا إلىٰ زوجته سارة في أرض فلسطين.

قال الفتىٰ : وكيف يترك إبراهيم زوجته «هاجر» وابنه الوحيد «إسماعيل» في هذا المان القفر، إنها قسوة من إبراهيم لا مثيل لها، فلا بد أن يموتا بعد أن ينفذ زادها وماؤها أو تفترسها وابنها الوحوش؟

قال الشيخ : الحقيقة يا بني أنه موقف صعب لا تتحمله النفوس البشرية ولا تعرف كيف تكيّفه فإنها مخاطرة بدون شك وليس لها إلا نتيجة واحدة هي الهلاك المحقق لهاجر وابنها إسماعيل الطفل الرضيع. ولكنه إبراهيم النبي المتوكل علىٰ الله والمستسلم دائمًا لأمر الله، فقد كانت حياته كلها مآزق وأزمات ثم ينقذه الله منها بالمعجزات ليكون للعاملين مثلًا أعلىٰ في الإيمان والاستسلام لأمر الله.

قال الفتىٰ : كأنه حدثت معجزة لإنقاذ هاجر وابنها في ذلك المكان الموحش؟

قال الشيخ : نعم.. بعد أن نفذ الماء وجفّ لبنها من ثديها وبلغ منها العطش منتهاه وأنهكها الجوع والعطش، ورضيعها بين يديها يصرخ من الجوع، تراءىٰ لها السراب ماءًا علىٰ الجبال المجاورة لها فأخذت تسعىٰ بينها سعيًا ملهثا حتىٰ أتعبتها سبعة أشواط تهرولها بين جبلي الصفا والمروة

والمسافة بينهما نصصف كيل متر تقريبًا. ولما بلغ منها اليأس والقنوط مأخذه ألقت بجسمها النحيل المتعب فاقدة الأمل بجوار رضيعها الباكي الصارخ. وعندئذ فقط في لحظات المنتهىٰ التي احتضمنت فيها طفلها تنتظر قضاء الله فيها ولم تعد عيناها تنظر شيئًا أمامها من كثرة البكاء وانهارت كل قواها إلا علىٰ وليدها الذي طوقته بذراعيها وهو يرقد بجوارها صارخًا، وفي هذه الأثناء التي دارت بها الدنيا فقدت سيطرتها علىٰ الحركة أحست بالماء يغمرها من تحتها هي وابنها فتنبهت قليلًا وأخذت حفنة منه تبلل به حلقها وأفاقت وشربت وارتوت ونزل لبنها في ثديها فورًا وسقت ابنا إسماعيل، ووجدت هاجر أن الماء قد تفجّر من الصخر تحت قدم ابنها إسماعيل وكان قد ضرب الحجر بقدمه الرخوة الصغيرة فنبع الماء.. وخافت هاجر أن ينفذ الماء بسرعة؛ فأخذت تقول للينبوع المتفجر من الصخر زم زم يا مبارك.. وبعد هذه الإجيال الطويلة يشرب الحجيج من ذلك المكان نفسه الذي يدعونه «بئر» زمزم.

قال الفتىٰ : الحمد لله يا سيدي.. لقد هدأت أعصابي فقد كنت مشدودًا مع هاجر عبر تلك القرون السحيقة أعيش معها محنتها حتىٰ حدثت معجزة الماء ولكني أريد أن أفهم وهل ستعيش علىٰ الماء فقط لأن زادها قد نفذ أيضًا. فكيف حلت هذه المشكلة؟

قال الشيخ : نعم، ولقد جعل الله لكل شيءٍ سببًا، فإنه عندما جرىٰ الماء في ذلك المكان أخذ الطير يحط ليشرب منه وأخذ يحلق أيضًا في السماء. وكانت قبيلة يقال لها «جُرهم» تسير قُرب ذلك المكان فرأت الطير يحوم- فعرفت أن ماءًا لا بد أن يكون في تلك الجهة وفعلًا بحثوا فوجدوا تلك المياه وهاجر وابنها، فاستأذنوها في الإقامة بجوارها ليشربوا من الماء، وهو ملكها، في نظير أن يمدوها بالعيش والأمان. وتم لهم ذلك، واستقرت هاجر في ذلك المكان وعمُر بالقوم الذين حطوا رحلهم بجوارها، وكبر إسماعيل وتزوج من تلك القبيلة وأصبح هو أبو العرب في ذلك المكان إلىٰ يومنا هذا، وجدِّ رسول الله «محمد» ﷺ.

قال الفتىٰ : أرجو أن تسمح لي أن أعود إلىٰ موضوع ذبح إسماعيل، فلماذا ابتلي به إبراهيم..؟

قال الشيخ : الواقع أن هذا الموضوع لم يختص به إبراهيم، وإن كان يعتبر امتحان لنبيٍّ مرسل في شيخوخته، وكان إسماعيل وحيده- فقد كانت منتشرة من قبل عادة تقديم القرابين للآلهة من الأغنام والثيران ثم كان يشذ بعضهم ويقدمون أيضًا الذبائح البشرية، والدليل علىٰ ذلك أن قدماء المصريين كانوا يلقون كل عام بفتاة بكر من الشعب إلىٰ النيل جزاء رفائه بمياه الفيضان، وتُحدِّثنا كتب التاريخ عن أن الساميين والبابليين كانوا يحرقون أبناؤهم بالنار قربانًا

لآلهتهم، كما أن عبد المطلب جد النبي «محمد» ﷺ كان قد نذر لو رُزق بعشرة أولاد ليذبحن الابن العاشر- وكان المقصود بذلك هو عبد الله ابنه العاشر، والد النبي ﷺ، وكان عبد المطلب قد عزم علىٰ ذبح لولا أن قومه أشاروا بافتدائه بالإبل وضربوا عليه الأقداح، واستمرت الأقداح تخرج عليه بالذبح، والفداء يزداد عددًا حتىٰ بلغت الإبل التي يفتدىٰ بها مائة- وعندئذٍ فقط خرجت الأقداح علىٰ الإبل. فذُبحت الإبل الفداء جميعها ووُزع لحمها علىٰ الفقراء والمساكين. إن في ذلك عبرة لأولي الألباب.

قال الفتىٰ : وهل عاش عبد الله كثيرًا بعد هذه الحادثة؟

قال الشيخ : لا ورب الكعبة، فقد أمهله الله حتىٰ تزوَّج بأم النبي ﷺ وهو لم يتجاوز العشرين عامًا إلا قليلًا. وبعد أيام من زواجه خرج مع قافلة الشام في التجارة. وعند عودته من الشام تخلَّف في قرية يثرب لزيارة أخواله فمرض هناك ومات إلىٰ رحمة الله ودُفن بها وترك زوجته حاملًا في شهرين بأشرف الخلق أجمعين، ولم يكن موت عبد الله مبكرًا مرتبطًا بذلك النذر لأن لكل أجل كتاب.

قال الفتىٰ : يحضرني في هذا المقام قول امرأة عمران في القرآن الكريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ

وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[1].

قال الشيخ : وما العبرة في ذلك يا بُني..؟

قال الفتىٰ : إنها أيضًا نفذت نذرها وأرسلت مريم إلىٰ الهيكل لتخدم فيه رغم أنها أنثىٰ، وقد كان ذلك مقصورًا علىٰ الرجال فقط.

قال الشيخ : صدقت بني، وإن لاستدلالك هذا الأثر الجميل. ويحضرني في هذا المقام ما جاء في التوراة بإصحاح ميخا السادس قوله: «هل أعطىٰ بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطية نفسي»[2] أي أنه كان يقدم ابنه فلذة كبده ليكون قربانًا وكفارة عن ذنبه للرب- فهذا القول يعطي فكرة أنه كانت تقدم الأبناء ذبيحة للآلهة قربانًا وتكفيرًا عن الذنوب أو وفاء للنذر عليهم، وتلك بالطبع كانت عادة سيئة وقد مُنعت منذ زمن بعيد.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ عجلًا سمينًا في هذا القسم فما قصته أيضًا..؟

قال الشيخ : يقول الله عن هذا الموضوع: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامـًا قَالَ سَلامٌ

(١) سورة آل عمران: ٣٥-٣٦.

(٢) الإنجيل.

قَوْمٌ مُنكَرُونَ* فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾[1].

﴿فلما رأىٰ أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾[2].

وقال : ﴿أَلا تَأْكُلُونَ.

قالوا : لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[3].

فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ *

قالت : يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ *

قالوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ *
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ[4].

قال : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ*

قالوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * (وهم قوم لوط) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ *

---

(١) سورة الذاريات: ٢٤-٢٧.
(٢) سورة هود: ٧٠.
(٣) سورة الذاريات: ٢٨-٢٩.
(٤) سورة هود: ٧١-٧٤.

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[(١)].

قال الفتىٰ : أفهم من هذا أن ضيوف إبراهيم كانوا ملائكة من عند الله وطبعًا لم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل ولا تشرب لأنها مخلوقة من نور، ولكنها نزلت إلىٰ إبراهيم متشبهة بالبشر- ولكن ما موضوع تبشيرهسم لإبراهيم بابنه إسحق؟

قال الشيخ : الواقع أن هذه معجزة أخرىٰ ورحمة... فكونها معجزة هو أن تلد زوجته (سارة) وهي في التسعين من عمرها، والمعروف في النساء أنها تحجم نهائيًا عن الولادة بعد الخمسين فما بالك بامرأة عقيم طول حياتها ثم تحمل وتلد في هذه الشيخوخة، فإنها أعجوبة حقًّا، أما كونها رحمة فذلك بالنسبة لقلب «سارة» فقد أراد الله أن تسعد بطفل لها بعد أن تحرق كبدها غيرة وحسدًا من هاجر وابنها إسماعيل، وقد رزق الله سارة بوليدها إسحق بعد ميلاد إسماعيل بنحو ثلاثة عشر عامًا، وشاء القدر أن يجعل من نسل إسحق الأنبياء المكرمين وهم يعقوب ويوسف وموسىٰ وداود وسليمان وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ، ويجعل

(١) سورة الذاريات: ٣١-٣٦.

من نسل إسماعيل خاتم الأنبياء والمرسلين وهو سيدنا محمد ﷺ.

قال الفتىٰ : كأن إبراهيم وقد جاوز المائة عام قد أصبح له وليده إسماعيل وهو ابن الثلاثة عشر عامًا في مكة، وطفله الثاني الرضيع إسحق في فلسطين من «سارة»، فهل كان يتنقل بينهما رغم كبر سنه، وبأي وسيلة؟

قال الشيخ : نعم كانت إقامته في فلسطين عند (سارة) ولكنه كان يزور ابنه إسماعيل وزوجته الثانية «هاجر» كل بضع سنين مستعملًا البراق دابة الأنبياء، أوَ لا تذكر أنه حضر إلىٰ إسماعيل ليذبحه، كما أنه حضر مرة أخرىٰ لبناء الكعبة مع ابنه إسماعيل وتم ذلك البناء المقدس كما يقول الله عنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًىٰ لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1].

قال الفتىٰ : أظنك تقصد الكعبة الشريف «بمكة»؟

قال الشيخ : نعم، فقد قال الله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ

(١) سورة آل عمران: ٩٦-٩٧.

السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١].

قال الفتىٰ : وكيف سمع الناس في الجزيرة العربية وغيرها هذا النداء من إبراهيم؟

قال الشيخ : لقد نفَّذ إبراهيم الأمر وأذَّن للحج فسمعت الأرواح في برزخها بأمر الله هذا النداء القدسي فلبت طائعة مختارة من كُتب عليها الحج من تلك الأرواح في غيبها، وهذا هو سر تهافت الناس علىٰ الحج لأن أرواح قد لبت النداء من قبل.

قال الفتىٰ : كأن الناس قبل الإسلام كانوا يحجون إلىٰ الكعبة ويطوفون حولها؟

قال الشيخ : نعم ومنذ عهد إبراهيم كان الناس يحجون إلىٰ الكعبة ويؤدون أكثر مناسك الحج المعروفة لدينا الآن وفي أوقاتها الحالية من الأشهر الحرم. وكان الناس في الجزيرة العربية وما حولها يقدسون الكعبة ويعترفون بأنها بيت الله الحرام، وكان أكثرهم يتعبد علىٰ ملة إبراهيم إلىٰ أن نزع الشيطان في قلوبهم وأقاموا الأصنام والأزلام حول الكعبة يعبدونها آلهة لهم لتقربهم إلىٰ الله زلفىٰ، وكان ذلك في عصر الجاهلية حتىٰ جاء الإسلام فحطم وسائل الشرك من الأصنام وطهَّر الكعبة الشريفة منها. ولهذا قال إبراهيم:

---

(١) سورة الحج: ٢٦-٢٧.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١).

قال الفتىٰ : يتبيَّن من هذا الدعاء أن سيدنا إبراهيم كان سعيدًا ببناء الكعبة لأنها ستكون مصدر الأرزاق والخيرات علىٰ ذريته من إسماعيل بسبب الحج إليها.

قال الشيخ : نعم، ولقد كان سيدنا إبراهيم كثير الدعاء إلىٰ الله في تلك الآونة المباركة، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

قال الفتىٰ : أعتقد أن سيدنا إبراهيم كان مستجاب الدعوة، وخاصةً في ذلك الوقت الذي يقوم فيه بأشرف عمل وأخلده علىٰ مرّ الدهور، وتحققت فعلًا دعوته، وكانت الأمة الإسلامية الأولىٰ من نسل إسماعيل.

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٥-٣٧.

(٢) سورة البقرة: ١٢٧-١٢٨.

قال الشيخ : حقًّا ما تقول، وأكثر من ذلك فقد كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام دعوة مستجابة من سيدنا إبراهيم أيضًا.

قال الفتىٰ : وكيف ذلك؟

قال الشيخ : قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

قال الفتىٰ : صدق الله العظيم إذ يقول:

﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

* * *

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

(٢) سورة الصافات: ١٠٩-١١١.

القسم (٥)
عهد يوسف

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ عهد «يوسف بن يعقوب» وإني أرىٰ في هذا القسم رغم اتساعه حيوانًا واحدًا هو ذئب يدور ويجري كأن به حيرة.. فما قصته؟

قال الشيخ : إن له قصة عجيبة، فهو الذئب الذي اتُهم ظلمًا بأنه أكل يوسف الصديق وهو صبي صغير، وقد ادعىٰ ذلك علىٰ الذئب أخوة يوسف وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب، وسجل الله القصة بالتفصيل في القرآن.

قال الفتىٰ : وما الذي حملهم علىٰ ذلك.

قال الشيخ : كأنك تريد مني أن أقصّ عليك أحسن القصص يا بني.

قال الفتىٰ : ولم لا؟

قال الشيخ : لقد كان للنبي يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولدًا ومن بينهم يوسف الصديق وكان صبيًا صغيرًا، ولكن والده كان يخصه بمحبته دون إخوته الكبار. وحدث أن رأىٰ يوسف رؤيا فأخبر بها والده.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ

وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ﴾[1].

قال الفتىٰ : كأن يعقوب كان يعلم حقد أولاده علىٰ أخيهم يوسف؟

قال الشيخ : نعم، ولهذا حذره أن يذكر رؤياه أمام إخوته فتزداد كراهيتهم له.

قال الفتىٰ : هل لما قال يعقوب لابنه يوسف: ويعلمك من تأويل الأحاديث علاقة بما صار عليه يوسف بعد ذلك في تفسير الأحلام والرؤيا؟

قال الشيخ : نعم، لقد كان كلام يعقوب هذا دعاء إلىٰ الله فاستجابه وأصبح يوسف متحققًا بالتفسير. وهو مقام جليل في النبوة يتقارب من الكشف الغيبي ولكن بأسباب. ولقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين.

قال الفتىٰ : وكيف كان ذلك؟

(١) سورة يوسف: ٤-٦.

قال الشيخ : إذ قالوا : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضـاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

قال قائل منهم: لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ[1].

قال الفتىٰ : ولماذا اختص يوسف وأخوه بحب أبيهم ييعقوب- والأمر الطبيعي أن يحب الأب أبناءه جميعًا بدرجة واحدة..؟

قال الشيخ : لك الحق يا بني فيما سألت.. والعاطفة الأبوية تتوزع تلقائيًا بنسب متساوية علىٰ الأبناء إذا كانوا أشقاء ولكن أبناء يعقوب لم يكونوا كذلك، بل كانوا من أربع أمهات- وكان يوسف وأخوه الأصغر «بنيامين» من زوجة يعقوب «راحيل»، وكانت أحب زوجاته إلىٰ قلبه بالإضافة إلىٰ أنها ابنة خاله، وماتت وتركت يوسف وأخاه طفلين صغيرين وقامت بتربيتهما خالتهما «ليثة» زوجة يعقوب الثانية وأصبحت في مقام والدتهما أي أن يعقوب كان متزوجًا من أختين شقيقتين هما بنتا خاله.

قال الفتىٰ : وهل نفّذ إخوة يوسف ما اتفقوا عليه من تآمر ضد يوسف؟

قال الشيخ : نعم.. ولكي ينفذوا خطتهم تحايلوا علىٰ أبيهم

(١) سورة يوسف: ٨-١٠.

فقالوا : يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ

قال يعقوب: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

قالوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ(١).

قال الفتىٰ : كأن يعقوب هو الذي نبههم إلىٰ الذئب..؟

قال الشيخ : ربما كانت حوادث أكل الذئاب للأطفال منتشرة في ذلك المكان والزمان، وربما كان الأمر بالنسبة ليعقوب من إرهاصات النبوة، فقد عبّر به إحساسًا بما سيكون لأنه نبي ويُحاط بجو من الغيبيات. أو ربما كان التصريح بذلك تلقائيًا واتخذ الأبناء موضوع الذئب سببًا متمشيًا مع فكرة أبيهم يعقوب.

قال الفتىٰ : وماذا فعلوا بيوسف...؟

قال الشيخ : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

قالوا : يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ

وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا

(١) سورة يوسف: ١١-١٤.

فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ
وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا
وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ

وجاءوا علىٰ قميصه بدم كذب فأوحىٰ الله إلىٰ يعقوب لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

قال الفتىٰ : وماذا كان وقع هذا النبأ علىٰ يعقوب..؟

قال الشيخ : قال يعقوب لبنيه: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ[1].

قال الفتىٰ : كأن يعقوب لم يصدّق أولاده في أن الذئب أكل يوسف؟

قال الشيخ : نعم.. لم يصدّقهم لأن إيمانه العميق وإحساسات النبوة الطاهرة فيه وصفاء روحه المقربة تكون جهازًا كاملًا لاستقبال موجات الصدق وترتد عنه ذبذبات الكذب، ولذلك انتفض يعقوب من مجلسه لما سمع من أبنائه ما سمع ورفض أن يصدقهم بل وصرخ فيهم غاضبًا وقال: بل سولت لكم أنفسكم أمرًا... ولقد جاءوا عشاءًا ليخفي الليل كذبهم ولأنه سيظهر علىٰ وجوههم..

قال الفتىٰ : لنعُد إلىٰ يوسف بعد أن ألقوه في البئر فماذا حدث له بعد ذلك؟

---

(١) سورة يوسف: ١٥-١٨.

قال الشيخ : أترك لك أن تتصور أنت حاله فهو صبي صغير قُذف به في جوف بئر عميق به ماء آسن، وفي قاعه أحجار مسنونة، ويسكن في جداره المظلم البوم والخفاش، ويرقد في مائه بعض الزواحف والحيّات... فهل يكون سعيدًا بحاله من يُلقىٰ به في مثل هذا الجُب... أم يا ترىٰ تتهشم رأسه وتُكسر عظامه وتسيل دماؤه ويروح في غيبوبة طويلة بعد صراخ وعويل من الخوف والهلع والآلام؟

قال الفتىٰ : حقًّا ما تقول، فإن يوسف لا بد وأنه قد تعرض لمثل هذا كله وأكثر.

قال الشيخ : لا.. لم يُصب بسوء ولم يمسسه الضر.. فقد تلقفته أكُف الملائكة وأنزلته برفق ولطف إلىٰ قاع البئر تنفيذًا لقضاء الله وقدره، واتخذ من تلك الأحجار في القاع مجلسًا له وأنس به كل ما في البئر وأضاء الله له ظلمته وتحسس نفسه فوجد أنه وحيدًا فصرّخ باكيًا فاهتزت له جنبات البئر وتردد صداه في قلوب جميع الأمهات في مشارق الأرض ومغاربها، وأخذت كل أم في الوجود تتحسس وليدها وكأن قلبها قد سقط من صدرها هلعًا علىٰ ابنها.. وتلك أسرار الحياة، فقد تتأثر الخليقة من النوع الواحدج في الوقت الواحد إذا لمستها يد القدرة علىٰ وترها الخاص.. وأنزل الله السكينة علىٰ قلب يوسف وتغشاه النُعاس وراح في سُبات عميق طوال الوقت الذي قدّر عليه أن يقضيه في

الجُب طال ذلك أو قصر- حتىٰ جاءت سيارة فأرسلوا واردهم فألقىٰ دلوه في البئر ليصيب الماء.. فتعلّق به يوسف فرفعه إلىٰ أعلىٰ البئر..

وقال الرجل: يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ
وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ
وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ[1].

قال الفتىٰ : هل كانت تجارة الرقيق تُمارَس في ذلك الوقت..؟

قال الشيخ : نعم.. بدليل أن الذي أخرج يوسف من البئر اعتبره تجارة رابحة له، وفعلًا باعه ولكن بثمن بخس ليكون عبّرة علىٰ مرّ الزمن في أن يوسف النبي ابن النبي يُباع بدراهم معدودة وكان الذي اشتراه زاهدًا فيه.

قال الفتىٰ : وماذا حدث ليوسف بعد ذلك..؟

قال الشيخ : ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾[2].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: ١٩-٢٠.
(٢) سورة يوسف: ٢١.
(٣) سورة يوسف: ٢٢.

قال الفتىٰ : وما معنىٰ ذلك..؟

قال الشيخ : أي أنه لمَّا أصبح يوسف شابًا أيّده الله بالحكمة والإيمان وملأ قلبه بنور النبوة ونزهه بالفضائل والأخلاق الكريمة وعصمه من الذلل، وعلّمه من لدنه تفسير الأحلام، وأجرىٰ علىٰ لسانه الصدق والإخلاص والحجة القوية والتقوىٰ والصلاح، فأخذ يدعو للإيمان بالله وعبادة الواحد الأحد ونبذ عبادة الأصنام والأوثان.. ورغم هذا فقد امتحنه الله في هذا السن المبكر بفتنة زوجة سيده فيه لأنه كان جميل الصورة.

قال الفتىٰ : وما هي.. وكيف تخلَّص يوسف من هذ المحنة..؟

قال الشيخ : لقد فُتنت زوجة العزيز بيوسف بعد أن أصبح شابًا مفتول العضلات قوي الجسم، وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ..

وقالت : هَيْتَ لَكَ

فقال يوسف: مَعَاذَ اللهِ

إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

ولقد همّت به لترغمه علىٰ ما تريد منه

وهمّ بها يدفعها عن نفسه

لَوْلا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ[1].

قال الفتىٰ : وماذا رأىٰ من برهان بعد ذلك؟

قال الشيخ : رأىٰ صورة أبيه يعقوب يحذره.

قال الفتىٰ : وماذا حدث بعد ذلك بينهما في هذا الموقف الحرج...؟

قال الشيخ : اسْتَبَقَا الْبَابَ.
وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ
وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْبَابِ
قَالَتْ : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً
إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[2].

قال الفتىٰ : لقد التصقت به التهمة وزاد في الشبهة غلق الأبواب، ولقد ظلمته بهذا الادعاء الباطل... فكيف تخلّص منه...؟

قال الشيخ : لقد سُمِّي يوسف الصديق من هذه الحادثة لأنه بالحقيقة أجاب..
قال يوسف: هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي[3].
ولما رأىٰ استنكار العزيز استشهد بطفل صغير هناك.
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا: إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ.

---

(١) سورة يوسف: ٢٣-٢٤.
(٢) سورة يوسف: ٢٥.
(٣) سورة يوسف: ٢٦.

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ
وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ.
فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ (العزيز): إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ
يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا
وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ
إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ(١).

قال الفتىٰ : الفضل في إنقاذ يوسف من هذا الموقف المريب يرجع إلىٰ هذا الطفل الذي ألهمه الله النطق بفصل الخطاب.

قال الشيخ : نعم.. ولولا ذلك لتمكنت امرأة العزيز من إنقاذ نفسها ولأصبح يوسف مذنبًا أمامه. ولكن الله يحق الحق ويزهق الباطل بأسرار ربانية لا تخطر علىٰ بال بشر.

قال الفتىٰ : لقد ورد علىٰ خاطري الآن يا سيدي في تعليل موقف يوسف لمَّا راودته امرأة العزيز..

قال الشيخ : وما هو يا بني..؟

قال الفتىٰ : لقد كانت امرأة العزيز بالنسبة ليوسف أمًا تربىٰ وترعرع في حجرها فكانت نظرته إليها كالوليد لأمه؟؛ نظرة إكبار واحترام لا تشوبها غرائز جنسية بل كانت عواطف طاهرة مكرمة، أما امرأة العزيز فكانت تنظر إليه وهو غريب عنها

(١) سورة يوسف: ٢٦-٢٩.

فلم تحمله بطنها ولم يتكون من جسمها وجاءها وهي زوجة عاقلة وأصبح ربيبها.. فمشاعرها له كان يحكمها العقل فقط وما أسرع أن يهمس إبليس في آذان النساء إذا كان بينهن نبي فيجدها صاغية.

قال الشيخ : إن لرأيك هذا وجاهته بالإضافة إلىٰ أن الله يعصم أنبياءه دائمًا عن الخطايا والذنوب. وأما إبليس فتلك مهمته أن يبذر الشوك في طريق الأنبياء ويثير العداوة والبغضاء ضدهم حتىٰ لا تنتشر دعوتهم ويحرض علىٰ قتلهم. فلقد قُطعت رأس النبي «يحيىٰ» إرضاءً للفتاة «هيروديا» ابنة أخ «هيردوس» حاكم فلسطين لما أعلن عليه يحيىٰ النبي عدم شرعية زواجه منها وهي ابنة أخيه.

قال الفتىٰ : وهل سكتت امرأة العزيز بعد ذلك عن مطاردة يوسف؟

قال الشيخ : لا.. لقد شاع هذا الحديث

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ: امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ
قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً
إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(١).

قال الفتىٰ : يالها من فضيحة يندىٰ لها الجبين خجلًا وحسرة

قال الشيخ : حقًّا ذلك.. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ
أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ

(١) سورة يوسف: ٣٠.

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً
وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً
«وقدمت لهن فاكهة»

وقَالَتْ ليوسف.. اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ
فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ
مَا هَذَا بَشَراً
إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ

قَالَتْ : فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ
وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ
وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ(١)

فقال يوسف : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ(٢).

قال الفتىٰ : الحمد لله فقد أقرت امراة يوسف ببراءة يوسف وعصمته.. ولا زالت مُصرّة علىٰ أن يفعل معها ما تريده وإلا سيكون مصيره السجن والعذاب. وقد فضّل السجن في الحال عمّا تبغيه سيدته.

---

(١) سورة يوسف: ٣١-٣٢.
(٢) سورة يوسف: ٣٣.

قال الشيخ : العبرة من ذلك أيضًا ما حدث من نسوة المدينة اللاتي فقدن عقولهن وطار صوابهن بمجرد رؤية جمال يوسف واصبحن جميعهن في حبه سواء فكيف يواجه يوسف هذا الموقف وقد سمع بأذنه تهديده بالسجن والتنكيل به.

قال الفتىٰ : حقًّا يا سيدي.. لقد أصبح يوسف في موقف حساس وهو يعيش في بيت العزيز مطارد من سيدته من أجل عفته ولئن خرج من البيت فستلاحقه الماردة أشد وأكثر من نسوة المدينة. فيف تصرف يوسف بعد ذلك يا ترىٰ..؟

قال الشيخ : نعم.. لقد أصبح جمال يوسف سببًا في محنته وأوقعه في حبائل النسوة وأغواهن إبليس به وإنها لفتنة قاسية وفضيحة كبرىٰ.. تردد صداها في المدينة كلها، وقد استقر رأي العزيز وقومه بعدما رأوا الايات الدالة علىٰ براءة يوسف وسماع ما حدث لنسوة المدينة وشغفهن به.. ليسجنن حتىٰ حين إنقاذًا للموقف وإطفاءً للتنة وتبرئة لزوجة العزيز ظاهريًا أمام الناس وإدانة يوسف وسجنه.. فليس له من مدافع.

قال الفتىٰ : لقد سُجن يوسف ظلمًا...

قال الشيخ : نعم.. ولكن السجن قد صادف هوىٰ في نفسه فرارًا بطهارته من الدنس الذي كان يلاحقه.. ولقد فضّل يوسف السجن ووجد فيه أمنًا وسلامًا وراحة وخيرًا من ذلك الجو

الفاسد الذي كان يعيش فيه والخطر الدام الذي كان سيتعرض له بعد كل ما حدث.

قال الفتىٰ : مع إيماننا بعصمة يوسف كنبي.. فهل كانت امرأة العزيز بلغت من العمر الذي يسهم في الإغراض عنها..؟

قال الشيخ : لا.. فلقد كانت في العمر الذي تحتفظ فيه المرأة بجمالها فقد جاءها يوسف وهو في السابعة من عمره.. ولو فرضنا أنها راودته عن نفسه وهو في العشرين من عمره أي بعد ثلاثة عشر سنة قضاها في بيتها فهي عندئذٍ تكون دون الأربعين من عمرها عندما افتتنت به، ثم إن يوسف قد أعرض أيضًا عن نسوة الدينة في ملس امرأة العزيز عندما توجه إلىٰ الله..

وقال : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ
أَصْبُ إِلَيْهِنَّ
وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ.
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ
فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[1].

(١) سورة يوسف: ٣٣-٣٤.

قال الفتىٰ : وكيف كانت حياة يوسف في السجن..؟

قال الشيخ : لقد كان السجن خيرًا وبركة علىٰ يوسف تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1].

فبعد أن كان يوسف في بيت العزيز عبدًا رقيقًا وخادمًا محصورًا في عمل معين، أصبح في السجن طليقًا يختلط بجموع الناس الذين معه في السجن وما أكثرهم دائمًا. وأخذ يُعلِّم الناس دينه ويدعوهم إلىٰ اعتناق عقيدة التوحيد وأن ما يعبدون من دون الله باطل وكفر. وأخذ يرح لهم ملة آبائه يعقوب وإسحق وإبراهيم في عبادة الله خالق السموات والأرض وخالق كل شيء وأخذ يعظ من في السجن بقوله:

﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

قال الفتىٰ : عجيبٌ أمر يوسف هذا الذي خلق له منبرًا دينيًّا في السجن وأخذ ينشر دعوته لهداية الناس بين جدرانه إنه كالورد في منابت الشوك، وكالماس في مناجم الفحم.. وماذا عنه أيضًا؟

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) سورة يوسف: ٣٩-٤٠.

قال الشيخ : ودخل معه السجن فتيان... فقال لهما أنه يعلم عن الله تأويل الرؤيا وتفسير الأحلام.

﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[١].

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

قال يوسف: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ *

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٣].

(١) سورة يوسف: ٣٧-٣٨.
(٢) سورة يوسف: ٣٦.
(٣) سورة يوسف: ٤١-٤٢.

قال الفتىٰ : كأن يوسف قد مكث في السجن بضع سنين لأنه طلب من الساقي الذي نجا أن يذكره عند الملك.

قال الشيخ : لا.. لأنه لم يمض وقت طويل عليه في السجن عندما فسّر رؤيا صاحبيه في السجن، كما أنه هو الذي طلب دخول السجن حلًا حتميًا لموقفه مع امرأة العزيز، ولكن الذي أراه أن يوسف طلب من الساقي أن يذكره عند الملك عندما يرىٰ الملك رؤياه التي سيعجز عن تأويلها الملأ، ويعتبر ذلك من إرهاصات النبوة- وأما كونه أنساه الشيطان ذكره عند الملك فهي من باب عمل الشيطان الذي يخدم القضاء والقدر مثل ما فعله إبليس مع آدم وأغواه ليأكل من الشجرة لينفذ قدر الله السابق ويهبط آدم علىٰ الأرض بسبب ذلك، ولو فرضنا أن الساقي ذكر يوسف عند الملك بعد خروجه مباشرةً، فهل كان الملك يهتم لذلك فإنا نشك في أن يفعل ليوسف شيئًا، ولكنه عندما ذكر الساقي يوسف أمام الملك ليفسّر له رؤيته التي عجز الملأ عن تفسيرها فاهتم به الملك كثيرًا وتغيّر الموقف بالنسبة ليوسف وخرج من السجن ليجلس علىٰ أكبر كرسي في الدولة بعد الملك.

قال الفتىٰ : وما تلك الرؤيا التي رآها الملك حتىٰ كانت السبب في هذا الحدث.

قال الشيخ : قال الملك: إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ❊

قالوا : أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ❊

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(١).

وذهب إلىٰ السجن

وقال : يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَىٰ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ❊

قال يوسف: تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ❊ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ❊ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٢).

---

(١) سورة يوسف: ٤٣-٤٥.

(٢) سورة يوسف: ٤٧-٤٩.

قال الفتىٰ : إنها رؤية عجيبة حقًّا... وجاء تفسيرها من يوسف أكثر عجبًا.. فهي بشير باليسر ونذير بالعسر وليس لأحد من عامة الناس أن يؤتىٰ مثل هذا التأويل فلا يقدر علىٰ ذلك إلا من يوحىٰ إليه بخبر السماء.

وهل رجع الساقي إلىٰ الملك بهذا التأويل؟

قال الشيخ : نعم.. وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ

فلما جاء الرسول إلىٰ يوسف

قال : ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ[1].

قال الفتىٰ : ولماذا هذا السؤال من يوسف وقد قضىٰ بضع سنين في السجن كانت كفيلة أن ينسىٰ الناس فيها موضوعه مع امرأة العزيز..؟

قال الشيخ : إنه أراد أن يبرئ نفسه أمام الملك والملأ من تلك التهمة التي أُلصقت به ظلمًا. وإن مثل هذه الحوادث لا تُنسىٰ بمرّ السنين، كما أن الله قد أوحىٰ إلىٰ يوسف بذلك السؤال ليعلن الملك براءته ويستيقن الشعب ذلك؛ لأن المركز الكبير الذي سيشغله يوسف وهو الوزير الأول للملك في الدولة يستلزم من يشغله أن يكون موضع الثقة والاطمئنان من الملك والشعب معًا..

---

(١) سورة يوسف: ٥٠.

قال الفتىٰ : وماذا فعل الملك مع النسوة..؟

قال الشيخ : لقد استحضر الملك تلك النسوة ومعهن امرأة العزيز

وقال الملك : مَا خَطْبُكُنَّ... إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ

قُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ

قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ[1].

قال الفتىٰ : من الشجاعة أن تعترف امرأة العزيز بجُرمها أمام الملك.

قال الشيخ : لأن النسوة اعترفن بطهارة يوسف.. وخشيت امرأة العزيز من شهادة النسوة لأنها سبق أن اعترفت أمامهن وقالت: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ[2].

قال الفتىٰ : حقًّا فربما خشيت امرأة العزيز من شهادة النسوة عليها وربما يكون ضميرها قد أنبها أن يُسجن يوسف بسببها ظلمًا تلك السنين.

(١) سورة يوسف: ٥١-٥٣.

(٢) سورة يوسف: ٣٢.

قال الشيخ : وإن كان السجن عليه مقدورًا فقد كان ليوسف محرابًا وخلوة مباركة تفرغ فيه للتأمل والتفكير في خلق السموات والأرض وما فيهن وكذلك لتلقي الفيوضات الربابانية والأنوار النبوية والعلوم الإلهية. وأخذ يدعو الناس للإيمان بالله واعتناق عقيدة التوحيد فكان السجن مركز إشعاع للتبشير بدعوته واعتنق كثير من المصريين عقيدة التوحيد بعد اقتناع من محاجة يوسف ولقد ظلت عقيدة التوحيد هذه تنمو وتترعرع في المصريين حتىٰ آمن بها أحد ملوك مصر بعد يوسف بقرون وهو الفرعون أخناتون الذي وحد الآلهة، وعبد المصريون في عهده إلهًا واحدًا.

قال الفتىٰ : بعد ذلك ماذا فعل الملك مع يوسف بعد تبرئته؟

قال الشيخ : قال الملك: ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي
ولما خرج يوسف من السجن وحضر أمام الملك
قال الملك ليوسف: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ[1].

قال الفتىٰ : بهذه الشهادة ليوسف قد ردّ له اعتباره وأصبح أمام الملك والشعب رجلًا أمينًا وطاهرًا وعظيمًا... وماذا حدث له بعد ذلك..؟

(١) سورة يوسف: ٥٤.

قال الشيخ : بعد أن تحقق ليوسف ما يبغيه وعرف الملك براءته وأمانته.. قال يوسف للملك: اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ[1].

قال الملك : قد جعلناك كذلك علىٰ خزائن المال ومخازن الغلال، والوزير الأول في الدولة، والمسئول أمامنا عن قوت الشعب في السنوات السبع الرخاء، ومثلها في الشدة.

قال الفتىٰ : إن هذا المركز الذي شغله يوسف ما كان يحلم به فهو انتقال مفاجئ أن يؤخذ من أعماق السجن ليتبوأ أكبر مركز في الدولة.. فهذا لا يحدث كثيرًا...

قال الشيخ : إن الأنبياء لا تُقاس أعمالهم بالناس وقد قال الله فيه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2].

قال الفتىٰ : كأنه بهذا انتهت محن يوسف وابتلاؤه وابتسمت له الأيام.

قال الشيخ : لقد كانت هذه المواقف محيصًا ليوسف ليقوم برسالته علىٰ أتم وجه. وبهذا رغم صغر سنه فقد شغل المركز الكبير الذي أُسند غليه بمهارة فائقة وبنىٰ المخازن العظيمة

(١) سورة يوسف: ٥٥.
(٢) سورة يوسف: ٥٦-٥٧.

التي ما زالت آثارها باقية للآن في ربوع الصعيد وكدّس فيها فائض المحاصيل حتىٰ جاءت سنين الجدب فلم تشعر بها مصر بل ولجأت البلاد المجاورة لها لشراء الحنطة، حتىٰ إخوة يوسف حضروا إليه من الشام ليشتروا قمحًا من مخازن مصر.

قال الفتىٰ : أوَ جاء إليه إخوته إلىٰ مصر وهم يعلمون أنه يوسف أخاهم؟

قال الشيخ : لقد كانت سنين الجدب عامة في البلاد سواء في مصر أو غيرها من الأقاليم المجاورة، وسمع الناس بوجود الغلال في مصر تباع للناس قاطبة فاتفق إخوة يوسف أن يشدوا الرحال إلىٰ مصر ليشتروا منها قمحًا وهم لا يعرفون أن يوسف أخوهم هو عزيز مصر في ذلك الوقت، وطبعًا لا يخطر ذلك علىٰ بالهم مطلقًا وأقصىٰ ما يمكن أن يتصوروه قد حدث لأخيهم يوسف أن قد التقطته بعض القوافل وأُخذ وبِيع عبدًا رقيقًا عند أحد الناس، وسيظل هكذا.

قال الفتىٰ : كيف عرف يوسف إخوته وقد غاب عنهم أكثر من ربع قرن، وأظنه قد انتقم منهم بمجرد أن رآهم وله العذر في ذلك؟

قال الشيخ : قد يكون يوسف عرف إخوته بإحدىٰ طرق ثلاث. فإما بوحي النبوة وإما بذاكرته في معرفة سيماهم ولغتهم

واصواتهم، وإما سأله عن أسمائهم ووطنهم فذكروا له اسم أبيهم وبلدهم، أما هو فلم يكشف لهم عن نفسه في أول الأمر، كما أنه لم ينتقم منهم، بل علىٰ العكس قد أكرمهم وزاد لهم في الكيل فضلًا منه وعطفًا. ولما جهزهم بجهازهم بما اشتروه من غلال.. قال يوسف لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم وهي أوزان الفضة التي دفعوها ثمن ما اشتروه لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلىٰ أهلهم لعلهم يرجعون.

ذلك لأنهم لا يقبلون أن يأخذوا تلك الغلال بدون ثمن وهي حيلة من يوسف ليعود إخوته إلىٰ مصر مرة أخرىٰ.

وقال يوسف لإخوته: ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ

قالوا : سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ[1].

قال الفتىٰ : هل نفهم من ذلك أن أخوة يوسف سيعودون إلىٰ مصر ثانية، إما ليعيدوا ثمن بضاعتهم التي اشتروها عندما يكتشفون أنها رُدَّت إليهم في متاعهم لأنهم أولاد نبي ولا يقبلون ذلك، وإما أنهم أيضًا سيعودون حتمًا لشراء

---

(١) سورة يوسف: ٥٩-٦٢.

بضاعة أخرىٰ بعد نفاذ ما اشتروه. واشترط لكي يبيه لهم مرة ثانية أن يحضروا معهم أخاهم بنيامين شقيق يوسف.

قال الشيخ : نعم لقد فهمت صوابًا.

قال الفتىٰ : وهل استحضروا معهم أخاهم كما طلب يوسف؟

قال الشيخ : لما رجعوا إلىٰ أبيهم يعقوب وفتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم.

قالوا : يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ❊

قال يعقوب: قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

قالوا : يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ❊

قال يعقوب: لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنْ اللهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ

فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ

قال : اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

يَا بَنِي لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنْ اللهِ مِنْ

شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ[1].

قال الفتىٰ : ولماذا قال يعقوب لبنيه ادخلوا من أبواب متفرقة؟

قال الشيخ : كان يخشىٰ الحسد.. ولما دخلا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قال الفتىٰ : أظن يوسف قد فرح برؤية شقيقه لما حضر مع إخوته ليشتروا غلالًا من يوسف مرة أخرىٰ؟

قال الشيخ : نعم.. وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ وكشف له عن نفسه. وقال: إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2].

قال الفتىٰ : وهل كشف يوسف عن نفسه لباقي إخوته أيضًا؟

قال الشيخ : لا.. ولكنه لمَّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

قال إخوة يوسف وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ: مَاذَا تَفْقِدُونَ

قَالُوا : نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ

وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ

---

(١) سورة يوسف: ٦٣-٦٧.

(٢) سورة يوسف: ٦٩.

وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ

قال أخوة يوسف : قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ

وقَالُوا : فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ

قال أخوة يوسف : جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[(١)].

«فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ»
كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ

قَالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ

وقال يوسف : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ[(٢)].

قال الفتىٰ : وماذا كانت عقوبة السارق في ذلك الوقت؟

قال الشيخ : يستعبد السارق، أي يصبح عبدًا رقيقًا لمن سرق منه.. أي بهذه الحيلة التي اعتبر بها بنيامين «سارقًا لكأس الملك» فإنه يصير عبدًا وخادمًا ليوسف.. واحتجزه عنده.

قال الفتىٰ : وكيف تصرّف أخوة يوسف في هذا الموقف الحرج؟

قال الشيخ : أخذوا يستعطفون يوسف

---

(١) سورة يوسف: ٧٠-٧٥.

(٢) سورة يوسف: ٧٦-٧٧.

وقالوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبـًا شَيْخـًا كَبِيراً
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ
إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ
قال يوسف : مَعَاذَ اللهِ
أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ
إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ
فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا
قَالَ كَبِيرُهُمْ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقـًا مِنْ اللهِ
وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ
فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي
أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[1].

قال الفتىٰ : لقد كان أخوهم الأكبر هذا يخشىٰ والده يعقوب ويحترم العهود، ولذلك رفض أن يرجع بدون أخيه بنيامين.

قال الشيخ : نعم لقد كان الأخ الأكبر هذا يُقدّر المسئولية ولكنه بجانب هذا كان واقعيًا فقال لإخوته: ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ
فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا
وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ ❋

(١) سورة يوسف: ٧٨-٨٠.

وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا
وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ[1].

قال الفتىٰ : طبعًا لا يصدقهم أبوهم فقد كذبوا عليه من قبل مع يوسف؟

قال الشيخ : حقيقة الأمر أنهم في هذه المرة صادقون وما أخبروه إلا بما شاهدوا ورأوا بأعينهم سرقة أخيهم، ولكن ثقة أبيهم فيهم أصبحت مفقودة منذ يوسف، كما أن يعقوب في ذلك الوقت بالذات كانت إلهاماته النبوية وفيوضاته الروحانية متشبعة بيوسف وإحساساته المرهفة تنبئه بقُرب لقائه، ولهذا فأنه عندما سمع من أبنائه ما سمع بخصوص سرقة أخيهم وحجزه عند عزيز مصر.

قال لهم : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعـًا
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[2]
وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ.
قَالُوا : تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضـًا

(١) سورة يوسف: ٨١-٨٢.
(٢) سورة يوسف: ٨٣.

أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ
قَالَ يعقوب: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللهِ
وَأَعْلَمُ مِنْ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ
يَا بَنِي اذْهَبُوا...
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ
إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ
إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ[١].

قال الفتىٰ : حقًّا لقد كانت هناك أسرار ربانية تحيط بيعقوب بالنسبة ليوسف، وكيف ربط بين الاثنين معًا وهما يوسف وأخوه في هذا الوقت وهما حقًّا معًا في مصر في حجرة واحدة. ثم يأمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه. وفي هذه الجملة فقط يفصح عن رأيه واضحًا بأنه لم يقتنع بأن الذئب أكل يوسف من قبل ذلك بنحو ربع قرن وأنه حي يُرزق، كما أنه لم يصدق بأن بنيامين سرق.

قال الشيخ : هذه كرامات النبوة. فقد صبر يعقوب هذه السنوات الطوال علىٰ غياب يوسف عنه وأحس بقُرب لقائه فأخذ يستعجل أبناءه ليبحثوا عن يوسف وأخيه أخذًا بالأسباب لأنه

(١) سورة يوسف: ٨٣-٨٧.

ملاقيهم عاجلًا. وذهب إخوة يوسف مرة ثالثة إلىٰ مصر وقابلوا يوسف... فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ

قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ
فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا
إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

قَالَ يوسف: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ

قَالُوا : أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ

قَالَ : أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي
قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا
إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

قَالُوا : تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ

قَالَ : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ
يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ
وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا
فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي
يَأْتِ بَصِيراً

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ[1].

قال الفتىٰ : لقد تحققت إحساسات يعقوب فورًا بالعثور علىٰ يوسف وأخيه بعد أن كشف يوسف عن نفسه لإخوته. ولكن كيف أن قميص يوسف يشفي عيني يعقوب.. فهل كان يوسف علىٰ قدر من الروحانية أكبر من أبيه؟

قال الشيخ : قد يكون ذلك. فإن يعقوب كان نبيًّا حقًّا، ولكن يوسف كان نبيًّا وله سلطان دنيوي أيضًا بأنه عزيز مصر- فربما يمتاز بهذه الصفة والله أعلم حيث يضع رسالته.

قال الفتىٰ : وماذا تم بعد أن أخذ أخوة يوسف القميص لأبيهم..؟

قال الشيخ : لَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ

قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ

قَالُوا : تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ... أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً

قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ

قَالُوا : يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ

قَالَ : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[2]

(١) سورة يوسف: ٨٨-٩٣.

(٢) سورة يوسف: ٩٤-٩٨.

قال الفتىٰ : وهل حضر أخوة يوسف وأبوهم بعد ذلك من فلسطين إلىٰ مصر وأقاموا بها نهائيًا هم وأهلهم أجمعون..؟

قال الشيخ : نعم.. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ
وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ
وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً(١)

قَالَ يوسف: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّـًا
وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ
وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ
مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي
إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ
وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ
أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمـًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(٢).

---

(١) سورة يوسف: ٩٩-١٠٠.
(٢) سورة يوسف: ١٠٠-١٠١.

قال الفتىٰ : إنها أحسن القصص حقًّا فقد استفدت منها كثيرًا...

قال الشيخ : ولتعلم أيضًا أن يعقوب كان يسمىٰ «إسرائيل» وأبناؤه الاثني عشر وهم أصل بني إسرائيل وبقوا في مصر وعاشوا أربعة قرون وتكاثروا حتىٰ أصبحوا أكثر من عشرة آلاف نسمة وأُخرجوا من مصر علىٰ يد نبي الله موسىٰ الذي أخرجهم من أرض مصر بعد أن استعبدهم المصريون طوال الأربعة قرون، ولولا أن موسىٰ كان مؤيدًا بالمعجزات من الله وهي العصا التي تصير ثعبانًا. واليد التي تضيء سناءًا لما استطاع أن يخرج ومعه بنو إسرائيل من قبضة فرعون الملك.

❁ ❁ ❁

القسم (٦)
عهـد موسـى

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ عهد «موسىٰ» عليه السلام وأني أرىٰ هنا «ثعبانًا» ضخم الجسم أسود اللون يقدح الشرر من عينيه لم أر مثله في الدنيا. فما قصته؟

قال الشيخ : إنه المعجزة الكبرىٰ لسيدنا موسىٰ عليه السلام فكان في صورة عصا يتوكأ عليها، وإذا ألقاها بنيّة التحول بسر القدرة الإلهية صارت ثعبانًا كبيرًا كان يجول ويصول علىٰ الأرض فيلقي الرعب في القلوب، والفزع في النفوس، وترهبه الناس خوفًا وهلعًا. وإذا أراد موسىٰ أخذه صار العصا كسيرتها الأولىٰ.

قال الفتىٰ : هل يمكن لهذه العصا أن تتحوّل إلىٰ حيوان مفترس مثل الأسد والنمر أيضًا؟

قال الشيخ : لا.. لم تكن العصا مطلقة التحوُّل بل كانت مخصصة لتصير ثعبانًا فقط.

قال الفتىٰ : ولماذا هذا التخصص؟

قال الشيخ : لقد كانت معجزة مخصصة لتتفوق علىٰ أعمال السحر وتبطله لأن أقصىٰ ألوان السحر أن يقدر علىٰ تحويل العصي والحبال إلىٰ ثعابين تسعىٰ أمام الناسن فإذا التقف ثعبان موسىٰ تلك الثعابين الأخرىٰ التي سحروا بها أعين

الناس. فبذا يتحقق التفوق لموسىٰ وأنه مؤيد بقوة سماوية أكبر تتضاءل أمامها قوة السحر.

قال الفتىٰ : ولماذا تأيّد موسىٰ بهذه المعجزة، وهي العصا التي تتحول إلىٰ ثعبان؟

قال الشيخ : تذكر في القسم السابق في عهد «يعقوب ويوسف» أني ذكرت لك أن يعقوب كان يسمىٰ (إسرائيل) وكان بنوه الاثني عشر سبطًا حضروا إلىٰ مصر في عهد يوسف الصديق واستوطنوا مصر في إقليم الشرقية وعاشروا بها أربعة قرون وكان يُطلق عليهم (بنو إسرائيل أو العبرانيون) وقد استذلهم المصريون واستعبدوهم وقتلوا أطفالهم الذكور، وكان موسىٰ أحد الأطفال من بني إسرائيل الذي نجا بأعجوبة من الذبح لأن الله أراد أن يجعل منه نبيًّا ورسولًا فأيّده بمعجزة العصا التي تتحول إلىٰ ثعبان، وأمر الله أن يذهب إلىٰ فرعون مصر ليسمح لقومه بني إسرائيل أن يخرجوا من مصر إلىٰ أرض فلسطين ليعبدوا ربهم الواحد رب إبراهيم ويعقوب وإن لم يصدّق فرعون يُظهر له موسىٰ هذه الآية الكبرىٰ وهي العصا التي تتحول إلىٰ ثعبان كبير لأن المصريين كانوا يتقنون أعمال السحر فجاء موسىٰ بهذه المعجزة لتكون أقوىٰ من سحر المصريين ليؤمن فرعون برب موسىٰ وأنه رسوله.

قال الفتىٰ : وهل صدّق فرعون وآمن برب موسىٰ..؟

قال الشيخ : لا... لم يصدّق موسىٰ ولم يؤمن بربه

وقال فرعون : إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا
إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ *
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ(١)

فقال فرعون : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

قال الملأ : أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم

وجاء السحرة وقالوا لفرعون: إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ

قال فرعون : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ

قال السحرة : يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ
وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ

قال موسىٰ : أَلْقُــوا

«فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ»

موسىٰ : أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

---

(١) سورة الأعراف: ١٠٦-١٠٨.

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ
وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ

قال فرعون : آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ
ثُمَّ لأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

قَالُـوا : إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ
وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ(١)

قال الفتىٰ : لماذا آمن السحرة فقط برب موسىٰ؟

قال الشيخ : لأنهم تحققوا بالبرهان العملي القاطع أن القوة التي تؤيد موسىٰ، وهو ربه، أقوىٰ من السحر الذي برعوا فيه واستخدموا في ذلك أقصىٰ ما وصلوا إليه من علم ومعرفة في علم النجوم والفلك واستخدام الجان والطلاسم السحرية.

---

(١) سورة الأعراف: ١٠٩-١٢٦.

قال الفتىٰ : قلت ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.. فما معنىٰ ذلك؟

قال الشيخ : إنها لمعجزة أخرىٰ تأيّد بها موسىٰ لدىٰ فرعون بجانب العصا، وهي أن يضع يده في جيبه ثم يُخرجها فتسطع سناءًا يخطف بالأبصار ، ثم يضعها في جيبه فتعود كما كانت.

قال الفتىٰ : إنها حقًا معجزات قوية تذوب أمامها جبال الكفر وتندك منها صروح الشرك. وهل بعد ذلك صرّح فرعون لموسىٰ وقومه بالخروج من مصر؟

قال الشيخ : لا، بل ظل فرعون علىٰ عناده من هذه المعجزات، لم يؤمن بموسىٰ، ولم يسمح لهم بالخروج حتىٰ أنزل الله البلاء علىٰ أرض مصر من الجراد والضفادع والقمل...

قال الفتىٰ : إني أرىٰ حقًّا في هذا القسم الجراد والضفادع والقمل، فهل هو ذاك؟

قال الشيخ : نعم سلَّط الله تلك الآفات علىٰ المصريين فأكلت الزرع والشجر والثمر، وأضرت بالإنسان والحيوان وأقضت مضاجعهم. وأخيرًا اضطروا للسماح لموسىٰ وقومه بالخروج من مصر.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ أيضًا طائرًا صغيرًا مثل السمان، فما شأنه؟

قال الشيخ : إنه طائر «السلوىٰ» الذي أرسله الله لبني إسرائيل بعد ان خرجوا من مصر إلىٰ ارض سيناء فكانوا يجدونه مفترشًا

الأرض في صبيحة كل يوم ومعه المنّ أيضًا، فكانوا يأخذون منه ما يلزم طعامًا ليومهم.

قال الفتىٰ : وما ذلك المَنّ؟

قال الشيخ : إنه مادة مثل ورق الشجر كانت عليها طبقة عسلية كانت تقوم مقام الخبز والحلوىٰ.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في ركن من هذا القسم «عجلًا» في قفص من حديد تحيط به لهب من نار فما قصته؟

قال الشيخ : لقد كان في قوم موسىٰ رجل يُدعىٰ «السامري» جُعل فتنة للناس ليقضي الله أمرًا كان مفعولصا، إذ صنع لهم عجلًا صاغه من الذهب الذي مع نساء بني إسرائيل ثم وضع فيه قبضة من تراب كان يسير عليه المَلَك جبريل وهو يسير مع النبي موسىٰ، وكانت تلك خاصية السامري أن يرىٰ وحده جبريل، فصار العجل بسر التراب الذي سار عليه جبريل عجلًا حيًّا له خوار، وقال لقوم موسىٰ: هذا إله موسىٰ نسيه هنا فاعبدوه، فسجد له بعضهم لأنهم ضعاف العقيدة، ولقرب أيامهم بالوثنية المصرية، وتم ذلك كله بينما كان موسىٰ يناجي ربه علىٰ جبل سيناء ويتلقىٰ منه التوراة والتعليم في الألواح، ولما رجع موسىٰ ووجد قومه قد ضلّوا وعبدوا العجل من دون الله غضب وثار وقبّح ما فعلوا وما ارتكبوا من خطيئة كبرىٰ، وأمسك بالعجل فذبحه وأحرقه وذرىٰ رماده في البحر ثم طرد «السامري»

من قومه ودعىٰ عليه بأن يصير متألمًا دائمًا إذا مسّ هو أحد او مسّه أحد وأن يقول دائمًا «لا مساس» وكانت تلك لعنة قاسية، نبذه القوم لجُرمه حتىٰ مرض ومات منبوذًا.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في هذا القسم أيضًا سمكة تسبح في بحيرة صغيرة، فما شأنها؟

قال الشيخ : إنها ذلك الحوت الذي حمله موسىٰ مع فتاه وذهبا ليقابلا الخضر عليه السلام، وكانت علامة مكان اللقاء هو عندما تعود الحياة لذلك الحوت وينطلق من مكتله إلىٰ البحر سربا.

قال الفتىٰ : وهل قابل موسىٰ الخضر فعلًا في المكان الذي تركت فيه السمكة المكتل ونزلت لمياه البحر.. ولِمَ كل هذا..؟

قال الشيخ : لقد تقابل فعلًا في ذلك المكان، وهو مجمع البحرين عند تقابل خليج العقبة مع البحر الأحمر، وكان هذا اللقاء بناءًا علىٰ وحي من الله لموسىٰ ليتعلَّم منه شيئًا ينفعه.

قال الفتىٰ : وماذا تم في هذا اللقاء بين موسىٰ والخضر، وما الذي تعلّمه موسىٰ منه؟

قال الشيخ : عندما تم اللقاء والتعارف

قال موسىٰ : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً..؟

قال الخضر : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً

قال موسىٰ : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً
وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً

قال الخضر : فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ
حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً

«فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا»[1]

قال موسىٰ : أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْراً

قال الخضر : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً

قال موسىٰ : لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ
وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامـًا فَقَتَلَهُ)

قال موسىٰ : أَقَتَلْتَ نَفْسـًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئـًا نُكْراً

قال الخضر : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً

قال موسىٰ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا
فَلا تُصَاحِبْنِي
قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)

فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ

(١) سورة الكهف: ٦٦-٧١.

قال موسىٰ : لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً

قال الخضر : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ

سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً

١ – أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ

يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا

وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً

٢ – وَأَمَّا الْغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ

فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً

وَأَقْرَبَ رُحْماً[1]

٣– وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ

وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً

فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

«وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»[2].

قال الفتىٰ : صدق الله إذ قال عن الخضر عبدًا من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلَّمناه من لدنا علمًا. فبعد أن كانت الحوادث التي

(١) سورة الكهف: ٧١–٨١.

(٢) سورة الكهف: ٨٢.

صدرت من الخضر جرائم في نظر موسىٰ تستحق العقاب، ولكن لما شرح الخضر الأسباب أصبحت غير ذلك.

قال الشيخ : كما تدلك هذ القصة أيضًا علىٰ قلق النفس البشرية وعدم الصبر مطلقًا علىٰ أي أمر يخالف الناموس الطبيعي أو المنطق العقلي، فرغم أن موسىٰ تعهّد بأن يصبر وحذره الخضر علىٰ ألا يسأله عن شيء أبدًا حتىٰ يخبره الخضر به بعدذ لك. ورغم ذلك لم يصبر علىٰ أول حادثة ولا الثانية ولا الثالثة فضاق به الخضر ذرعًا وافترقا. فتكون هذه الحوادث عظمة للعالمين.

وتدل أيضًا علىٰ تواضع موسىٰ وتحمله مشاق السفر في طلب العلم من الخضر بقوله: هل أتبعك علىٰ أن تعلمني مما عُلّمت رشدًا.

قال الفتىٰ : صدقت، وإني أرىٰ أيضًا في آخر هذا القسم «بقرة» صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، فما شأنها؟

قال الشيخ : بعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر وسكنوا في سيناء وقعت بينهم حادثة قتل واختلف الناس في معرفة القاتل، فتوجهوا إلىٰ «موسىٰ» يسألونه أن يرشدهم عن القاتل لأنه نبي ورسول ويستطيع أن يسال ربه فيجيبه عن ذلك.

فقال موسىٰ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً[1]

وتضربوا القتيل ببعضها فيحيا بأمر الله

(١) سورة البقرة: ٦٧.

ويذكر لكم اسم قاتله

قال بنو إسرائيل: أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً

قال موسىٰ : أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ

قالوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ

قال موسىٰ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ
عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ

قالوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا

قال : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ.

قالوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ
إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ

قال : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ
تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ
مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا

قالوا : الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

وقال موسىٰ : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا
كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ
وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[1].

---

(١) سورة البقرة: ٦٧-٧٣.

ولما فعلوا ذلك أنطلق الله القتيل باسم قاتله فحوكم ونزل به القصاص، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة من أول الأمر وضربوه ببعضها لحدث ما حدث أيضًا، ولكنهم كانوا يُضيّقون علىٰ أنفسهم فضاقت عليهم السُبُل «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»[1].

قال الفتىٰ : أظن موسىٰ عليه السلام قد تحمّل متاعب كثيرة في سبيل قومه؟

قال الشيخ : لقد كان موسىٰ من أُولي العزم من الرسل وتحمّل في سبيل تبليغ رسالته وإخراج بني إسرائيل من مصر المتاعب والمشاق، فقد تحمّل الأذىٰ والاضطهاد من فرعون، وبعد أن خرج بقومه من مصر إلىٰ سيناء أخذ بنو إسرائيل يُحمّلوه مسئولية إعاشتهم من مأكل ومشرب ومسكن وكان عددهم يربو علىٰ العشرة آلاف نسمة.

قال الفتىٰ : وكيف دبّر لهم المأكل والمشرب والمسكن، وصحراء سيناء جرداء لا ماء فيها ولا شجر؟

قال الشيخ : بالنسبة للمشرب ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتي عشرة عينًا وعرف كل الناس مشربهم، وأما مأكلهم فقد سبق أن قلت أن القوم كانوا يجدون في صبيحة كل يوم المنّ والسلوىٰ مفترشًا الأرض يأخذون لطعامهم يوميًا ما يشاءون، وأما المسكن فكانت تظللهم غمامة دائمًا

(١) سورة البقرة: ٥٧.

تقيهم حرارة الشمس، ورغم هذه النِعَم الكثيرة فإنه بينما موسىٰ يناجي ربه علىٰ الجبل رجع فوجد قومه يعبدون عجلًا مثل ما كان يعبد المصريون عجل أبيس.. أليس هذا كفر بأنعم الله..؟

قال الفتىٰ : نعم إنهم لكافرون وجاحدون بنعمة الله عليهم.

قال الشيخ : بل وأكثر من ذلك دعاهم موسىٰ أن يدخلوا أرض فلسطين ويحاربوا أهلها فرفضوا، وقالوا:

يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ

قال موسىٰ : رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

قال الله : فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَىٰ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[(١)].

قال الفتىٰ : عجيب أمر هؤلاء القوم من بني إسرائيل لقد حقّ عليهم القول من موسىٰ وربه بأنهم فاسقون كما حرّمت عليهم أرض فلسطين، وقدّر عليهم أيضًا أن يتيهوا أربعين سنة في سيناء عقابًا لهم علىٰ عصيانهم لموسىٰ نبيهم ورسوله، ومن بعد ذلك تشردوا في بقاع العالم حتىٰ يوم الدين.

❁ ❁ ❁

(١) سورة المائدة: ٢٤-٢٦.

القسم (٧)
عهـد داود

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ عهد «داود» عليه السلام، وإني لأرىٰ في هذا القسم طيرًا مختلفًا أنواعه وألواه ينتقل علىٰ الأفنان تيهًا وخيلاءً.. فما قصته؟

قال الشيخ : ألم تسمع قول الله في معجزات سيدنا داود النبي وهو ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(١).

فهذه هي الطيور التي كانت تردد مع داود كلما رتل المزامير وأنشد تسبيحاته يمجد الله في ملكوته ويقدس له، وقد وهبه الله صوتًا حسنًا رخيمًا يشجي المسامع فتهتز له القلوب طربًا وخشية لله. حتىٰ إن الجبال الرواسخ كانت هي الأخرىٰ مع الطير تردد تسبيحه وذكره لله صباحًا ومساءً، فما أعظم وأجمل هذا المشهد الملائكي الذي انفرد به داود عن باقي الأنبياء، حيث يقول الله فيه.. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾(٢).

---

(١) سورة ص: ١٧-٢٠.

(٢) سور الإسراء: ٥٥.

قال الفتىٰ : وكيف تسبح الجبال..؟

قال الشيخ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]. ومن فضل الله علىٰ الناس أنها حُجبت عن سماع أو رؤية تسبيح المخلوقات من جبال وماء وهواء وحيوان وطيور ونبات، فلو كُشف لإنسان مثلًا عن سماع زهرة وهي تُسبِّح له لما استطاع أن يقطفها، ولو كُشف له عن شربة ماء وهي تسبح لله لما استطاع أن يشربها إكبارًا ورهبة. وهكذا لو كُشف له عن الجبل وهو يمجد ويذكر الله لما استطاع أن يستقطعه أو يطأه بقدمه.

قال الفتىٰ : حقًّا إن الحجاب نعمة، فلو كان الإنسان يعرف منطق الطير وهو يصدح شاكرًا لنعم الله أو مستغيثًا باسم الله الأعظم أن ينجيه من صائده لما أقدم علىٰ الإمساك به أو صيده لذبحه.. يا لله إن الكون عجيب تكتنفه الأسرار ونحن من حولها في غفلة.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قال الشيخ : لقد مسّت نسمات الرحمن قلبك فنطقت حكمة واهتزت منك أوتار الخشية من الله فما بالك بأناس من الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين يعيشون في كنف الرحمن متعلقة قلوبهم بذكر الله قد انكشفت عنهم الحُجُب فرأوا ما كان

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

وما سيكون من قبل خلق آدم إلىٰ قيام الساعة ويقرأونه في اللوح المحفوظ مسطورًا بقلم القدرة لكل من الخلق كتابًا يلقاه منشورًا.. ذلك الذي يأمره الله يوم الحشر عنده أن ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[(1)].

قال الفتىٰ : مهلًا يا سيدي.. فقد أغرقتني في محيط لست من أهله، فإن الاسترسال في الروحانيات يجرنا إلىٰ بحر غوره عميق وكُن بي علىٰ الساحل فهذا مكاني.. ومن عرف مقامه فقد اهتدىٰ إلىٰ سواء السبيل.

قال الشيخ : لست أرضىٰ لك بهذا الساحل مقامًا فأرضه يابسة وطال وقوفك عليه.. فاركب السفينة بسم الله مجريها ومرساها.

قال الفتىٰ : ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[(2)].

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[(3)].

قال الشيخ : لقد ظللتنا روح النبي داود أثناء هذا الحديث فأفاضت علينا نورًا وأمدتنا بقبس من ذلك الجو المبارك الذي كان يعيش فيه منذ العهود السحيقة حيث كان ترتيله للمزامير يفعل في القلوب فعل السحر في العقول فتؤمن خاشعة مستبصرة. ولقد أكرمه الله أيضًا بقوله:

---

(١) سورة الإسراء: ١٤.

(٢) سورة الملك: ٢٩.

(٣) سورة آل عمران: ٨

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً
يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ
وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ *
أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ
وَاعْمَلُوا صَالِحـًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[(١)].

قال الفتىٰ : كأنها معجزة أخرىٰ للنبي داود أن يلين له الحديد..

قال الشيخ : نعم.. كان الحديد في يده كالعجين يشكل كيف يشاء ويصنع منه الدروع والقدور دون حاجة إلىٰ أن يصهر الحديد، وهي آية لم يختص بها اي نبي آخر غيره لا قبله ولا بعده.

قال الفتىٰ : لكن ما حكمة أن وهب الله داود المزامير..؟

قال الشيخ : لقد داود في صباه يرعىٰ الأغنام، ومن عادة الرعاة أن يقطعوا وقت فراغهم بالترتيل والغناء مستعملين في ذلك بعض الآلات، وقد وهب الله داود جمال الصوت فكان ذلك مُعينًا له علىٰ أداء رسالته وهداية الناس، لأن تلك المزامير كانت تدعوهم لعبادة الله تضرعًا وابتهالًا فكان تأثيرها علىٰ قلوبهم أشد من وعظ الوعاظ، وخطب الخطباء.

---

(١) سورة سبأ: ١٠-١١.

قال الفتىٰ : وما معنىٰ الحكمة وفصل الخطاب لداود..؟

قال الشيخ : الحكمة أنه قد وُهب النبوة، وأما فصل الخطاب كان يقضي بين الناس بالحق ويستبين العدل فورًا وينطق به إلهامًا من الله ومِنّة لأنه كان ملكًا علىٰ شعبه من بني إسرائيل في فلسطين بجانب نبوته، فكان يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية. وقد كان يخصص بعض الأيام من كل أسبوع ليقضي فيه بين شعبه. وفي أحد الأيام رسل الله له مَلَكين في صورة رجلين يعرضان عليه قضيتهما وليتعلّم من بحثها طريقة الحكم بين الناس.

قال الفتىٰ : وما تلك القضية.. إني أتوق لمعرفة تفاصيلها عسىٰ أن تنفعنا في أمر دنيانا.. وما أكثر أن يتعرض الإنسان أحيانًا ليفصل بين الناس.

قال الشيخ : انظر في قسم «داود» هل ترىٰ نعجة فيه؟

قال الفتىٰ : نعم توجد نعجة واحدة في القسم. وماذا تعني هذه..؟

قال الشيخ : إنها تمثل الصورة الرمزية للقضية التي حدثت للنبي داود فقد ذهب المَلَكان إلىٰ داود في غير أيام القضاء، بل في اليوم الذي كان يخصصه لعبادة ربه في خلوته، كما في قوله تعالىٰ: إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ
إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ
قَالُوا : لَا تَخَفْ

خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ
إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ
فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ
قال داود : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ
وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ
وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ
فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ
وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ
يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ
فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ[1]

(١) سورة ص: ٢١-٢٦.

قال الفتىٰ : إن مثل هذه القضية يتكرر وقوعها دائمًا في الدنيا في كل زمان ومكان، فهي شائعة الحدوث أن يطمع الغني فيما عند الفقير ويستولي عليه منه بالقوة فيفزع إلىٰ القضاء أو إلىٰ الحاكم ليرد إليه حقه المغتصب، ولذلك فلا ارىٰ فيما حكم به داود عيبًا في حكمه.

فلماذا إذًا استغفر وتاب..؟

قال الشيخ : لأنه سمع وحكم من طرف واحد. والقاضي يجب أن يتسع صدره ولا يتسرع بالحكم، بل ويسمع رأي الطرف الآخر لعل أن تكون له حجة تستحق الاعتبار والنظر قبل الحكم، وبهذا ظن داود أنه نسي سؤال الآخر وأسرع بالحكم، فاعتبر أن حكمه عندئذٍ مشوب، ووجد أن الخصمين وهما الملَكان قد غابا عنه فلم يستطع استدراك الحكم لتصحيحه فشعر بأنه قد قصّر فاستغفر ربه وتاب إليه.

قال الفتىٰ : إن هذا يذكرني بما أخبرتني به في قصة موسىٰ والخضر من أن موسىٰ عليه السلام كان يستعجل بالحكم علىٰ أعمال الخضر بأنها جرائم يعاقب عليها، ولكنه بعد أن سمع منه ما لم يستطع عليه صبرًا اقتنع بأن ما فعله الخضر كان رحمة وعملًا سليمًا لا غبار عليه.

قال الشيخ : صدقت يا بني، وإن استشهادك هذا جميل لأن الله يضرب الأمثال للناس لعلهم يتقون. ولقد ذُكرت في القرآن أيضًا

قصة أخرىٰ حكم فيها داود بحكم، وحكم ابنه سليمان بحكم آخر، لتكون مثلًا حيًّا لتدرج القضاء، وفوق كل ذي علم عليم، وأن الله يؤتي الحكمة من يشاء.

قال الفتىٰ : وما تلك القصة الأخرىٰ عساها تكون نبراسًا آخر للقضاء يهتديه بها من يجلس علىٰ كرسي العدالة؟

قال الشيخ : نعم إن ما يُساق من قصص وحوادث في القرآن سواء كان له صفة الحدوث أو الرمزية إنَّمَا تخفي وراءها حِكمًا بليغة ودستورًا عادلًا للقضاء ونماذج للمجتمع الفاضل المعتدل.. فقد قال الله:

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ
إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ *
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ
وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمـاً وَعِلْمـاً [١]

قال الفتىٰ : وما الحكمة التي توحي بها هذه القضية؟

قال الشيخ : لقد كان داود في يوم القضاء بين الناس يجلس معه ابنه سليمان وهو صغير ليُعلِّمه كيفية القضاء بما يسمع ويرىٰ مما يُعرض علىٰ أبيه.. فقد حدث أن غمًا قد رعت زرعًا لشخص آخر وأتلفته. وعُرضت القضية ليحكم فيها داود

(١) سورة الأنبياء: ٧٨-٧٩.

فكان أن حكم داود بالغنم لصاحب الزرع الذي أتلفته، وعندئذٍ أوحىٰ الله إلىٰ سليمان أن يستأذن أباه في أن يسمع لحكمه في هذه القضية.. فنطق سليمان بحكمه في أن يستلم صاحب الزرع الأغنام ليستغلها، ويستلم ملاك الأغنام الأرض ليعيد راعتها كما كانت، وعندما يصبح زرعها كما كان وقت أن انتشرت في الأغنام وأكلته تعود الأغنام إلىٰ صاحبها، ويسلم صاحب الأرض زراعته، وبذلك يرد كل شيء إلىٰ أصله كما كان، وهذه نظرية يُعمل بها الآن في القضاء.

قال الفتىٰ : جميل ما حكم به سليمان رغم صغر سنه وعدم ممارسته للقضاء، ولكن الله يؤتي الحكمة من يشاء.

* * *

القسم (٨)

عهد سليمان الحكيم

قال الفتىٰ : نقل الآن إلىٰ «عهد سليمان الحكيم» عليه السلام
وإني لأرىٰ في الصدارة من هذا القسم «هدهدًا» يزهو بتاجه
علىٰ رأسه وريشه الجميل البديع المنظر.. فما قصته؟

قال الشيخ : يقول الله في القرآن الكريم: ورث سليمان داود...
وقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ *
وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[(١)].

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ...
فَقَالَ : مَا لِي لا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ
أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ *
لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابـًا شَدِيداً
أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ
أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[(٢)].

---

(١) سورة النمل: ١٦-١٧.
(٢) سورة النمل: ٢٠-٢١.

قال الفتىٰ : هل كان هناك هدهد واحد في كل مملكته..؟

قال الشيخ : لا، وكن كان هناك نائب عن كل نوع من الطيور.. يحضر مجلس سليمان يأخذ منه الأمر ويحادثه في كل ما يخص كل نوع من الطيور علىٰ حده، فكان هناك هدهد واحد عن جميع النوع منه... وكذلك عصفور واحد يمثل جميع العصافير، وحمامة واحدة تمثل كل نوعها. وكذلك يمام واحدة عن جميع اليمان... وهكذا. فقد كانت مملكة الطير يمثلها واحد من كل نوع تحضر مجلس سليمان وتتشرف بالحدي معه عما يحدث لصنفها، وتلتزم بما يأمرها به فتبلغه إلىٰ أترابها، وهي تلك التي نراها في القسم.

قال الفتىٰ : هل أستطيع أن أعرف نماذج ما كان يدور بين سليمان وأعضاء مملكته من الطير؟

قال الشيخ : قد تشكو حمامة لسليمان من صقر اختطف صغارها، أو تشكو يمامة من غراب اعتدىٰ علىٰ عشها والتهم بيضها، أو قد يأمر حدأة لتخطف رغيفًا من المدينة لتلقيه أمام ناسك منقطع في الصحراء غذاءً له من عند الله. أو قد يأمر سربًا من العصافير لتتوجه إلىٰ مان لتكون طعامًا لقوم مؤمنين فضلًا من الله ورحمة. مثل ما كان يحدث لبني إسرائيل في سيناء عندما كانوا في صبيحة كل يوم يجدون طائر السمان مفترشًا الأرض فيأخذوه ليجعلوا منه طعامًا

شهيًا وهكذا.. ولم تقتصر معرفة سيدنا سليمان علىٰ لغة الطير فقط بل كذلك لغة الحيوانات.

قال الفتىٰ : وأين كانت مملكة سليمان..؟

قال الشيخ : كانت بالشام ومقره بالقدس «أورشليم».

قال الفتىٰ : وهل ذبح الهدهد لما غاب عن مجلسه دون إذن سابق منه أو عذر؟

قال الشيخ : لا لم يذبحه.. وإن سليمان مكث غير بعيد.. فلما حضر الهدهد استجوبه..

فقال الهدهد: أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ[1].

قال الفتىٰ : وكيف يجرؤ هذا الهدهد أن يتفوه بهذا الكلام عل نبي الله ورسوله سليمان الذي أوتي من السلطان والمُلك ما لم يؤت لأحد من قبله ولا من بعده، ويقول له بأنه يعلم أكثر منه في أمرٍ ما؟

قال الشيخ : تلك حكمة الله البالغة وعظة للبشر حتىٰ لا يظن شخص ولو كان نبيًّا أنه أعلم الناس... فقد سيقت هذه الحادثة حتىٰ لا يستصغر الإنسان أحدًا ويتعلَّم دائمًا ممن هم أصغر منه شأنًا مثل ما يتعلَّم من الأكبر منه.

(١) سورة النمل: ٢٢.

قال الفتىٰ : وما الذي كان يعلمه الهدهد ولم يعرفه سليمان؟

قال الشيخ : قال الهدهد: وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *
إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ *
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ
وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ
فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ *
أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ *
اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
قال سليمان: سَنَنظُرُ... أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنتَ مِنْ الْكَاذِبِينَ
اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ..
فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ[1].

(١) سورة النمل: ٢٢-٢٨.

قال الفتىٰ : لقد أثبت الهدهد حقًّا أنه أعلم من سليمان بهذا الموضوع بالذات، ولكن أين «سبأ» هذه...؟

قال الشيخ : إنها مملكة سبأ بإقليم اليمن في جنوب الجزيرة العربية... وكانت ملكتهم التي يعنيها الهدهد تسمىٰ «بلقيس»... وقارن يا بني هذه المسافة بين القدس واليمن التي كان يطيرها الهدهد وكم كانت تأخذ منه من أيام ليقطع هذه الأسفار البعيدة ليكبر في نظرك هذا الهدهد وأنه أصبح يتيه ويفتخر بهذه المعلومات علىٰ سليمان...

قال الفتىٰ : طبعًا فإن لهذا الهدهد الحق في أن يزهو بما اكتشفه في مملكة سبأ، وشاهد وتعقل أن امرأة تملكهم وأنهم يعبدون غير الله، ثم جاء سليمان وأخبره بما رأىٰ، وفوق ذلك أنه علّق علىٰ عملهم هذا من عنده أن الشيطان هو الذي زيَّن لهم عملهم هذا بعبادة الشمس، ويستعجب كيف لا يعبدون الله الذي يُخرج الخبأ في السموات والأرض ويعلم ما خفي من الناس وما ظهر، وأنه رب الكون.

قال الشيخ: إنك يا بني قد حلَّلت قول الهدهد بما أثلج صدري، وقد كان خافيًّا عليّ حقيقة عظمة هذا القول من الهدهد، فمنك استفدت أن الهدهد علىٰ هدىٰ من ربه ويعلم أن الله رب العرش وخالق كل شيء، ولولا وجود الشيطان في الدنيا لعبد الناس ربهم بالفطرة، فما أجمل أن يصدر هذا الحديث وهذه الحكمة البالغة عن طائر صغير مثل الهدهد

بالغًا في الضعف من الجسم حدًا لا يؤبه له. وإنه لذلك كان علىٰ حق حين قال لسليمان (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ).

قال الفتىٰ : ولكن سليمان تحفّظ فيما قاله الهدهد ولم يُصدّقه في أول الأمر وأرسل معه كتابًا إلىٰ ملكة سبأ.. لماذا..؟؟

قال الشيخ : هذا نموذج للتأكد واليقين لكل أمر جلل يخبر به الإنسان. فهل كنت تتصور أنه بمجرد قول الهدهد هذا يُجرد سليمان جيشًا ويذهب ليحارب به مملكة سبأ. أظن لا يفعل ذلك رجل حكيم لهذا أرسل سليمان الهدهد ثانية بكتابه إلىٰ الملكة ليأتي بمعلومات أكثر ويأتي له ببينة علىٰ صدق قوله.

قال الفتىٰ : وماذا كتب سليمان إلىٰ ملكة سبأ؟ وماذا فعلت بهذا الكتاب؟

قال الشيخ : حمل الهدهد الكتاب وطار به إلىٰ مملكة سبأ، وقد يستغرق مدة لا تقل عن شهر حتىٰ وصل إلىٰ قصر الملكة وألقىٰ الكتاب أمامها علىٰ سريرها فتناولته في دهشة وعجب- ولما قرأته وعلمت ما فيه، وكانت هي امرأة ذكية الفؤاد عاقلة رزينة- جمعت شعبها ومستشاريها لتعرض عليهم الأمر لأنه جد خطير.. فهو يتعلّق بكيان المملكة..

وقالت : يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ❊
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❊
أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[1]

---

(١) سورة النمل: ٢٩-٣١.

قال الفتىٰ : ما أجمل هذا الخطاب وما أقصره.. وما أجزله معنىٰ وأوفاه غرضًا.. ولقد كان تصرف هذه الملكة في غاية الحكمة والتريث فهو يمثل نظام الشورىٰ أو الحكم الديمقراطي الصحيح. ثم ماذا حدث بعد ذلك..؟

قال الشيخ : قَالَتْ الملكة : يَا أَيُّهَا المَلأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي
مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ
قَالُـوا : نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَالأَمْرُ إِلَيْكِ
فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ
قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ[1].

قال الفتىٰ : أظن الهدهد قد رجع سريعًا قبل رسل الملكة وأخبر سليمان بما استقر عليه رأي الملكة وشعبها.

قال الشيخ : فعلًا عاد الهدهد إلىٰ سسليمان وأخبره بحضور وفد من سبأ يحمل الهدايا إلىٰ سليمان، وطبعًا مكث الرسل في السفر ما لا يقل عن ثلاثة شهور فقد كانت الإبل هي وسيلة الانتقال في الصحراء. ولما قدموا سليمان

(١) سورة النمل: ٣٢-٣٥.

قال لهم : أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ
فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ
بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ❊
ارْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ[1].

قال الفتىٰ : أظن سليمان قد صدَّق الهدهد بعدما رأىٰ رُسُل سبأ؟

قال الشيخ : نعم.. ثبت له صدق قول الهدهد وعفا عنه لأنه قد تحقق أنه جاءه بسلطان مبين ولولا ذلك لعذبه أو ذبحه، وهذه صفة الحاكم العادل، صرامة في الحق والنظام، وإقامة الحد بعد اليقين.

قال الفتىٰ : وماذا حدث بعد أن رجع رسل سبأ إلىٰ ملكتهم؟

قال الشيخ : لقد أخبروا ملكتهم بما رأوا وما سمعوا من سليمان وإصراره علىٰ حضورها طائعة مسلمة وإما أن يرسل إليها بجنوده التي لا قبل لهم بها فيقهرونها علىٰ الخروج من سبأ ذليلة أسيرة، كما أنه ردّ إليها هديتها لأنه في غنىٰ عن مالها عنده أكثر منها مالًا وملكًا. كما أن أولئك الرسل قد أخبروا ملكتهم عن سليمان ومُلكه الواسع وقوته وجبرته وأنه ليس ملكًا دنيويًا فقط بل هو نبي أيضًا مؤيد

(١) سورة النمل: ٣٦-٣٧.

بالمعجزات والآيات الباهرة، ولهذا قررت ملكة سبأ «بلقيس» أن تذهب إلىٰ سليمان من اليمن إلىٰ القدس في وفد كبير من قومها يقدمون له الطاعة والخضوع. ويدخلون في دينه الذي ارتضوه لهم دينًا. وهو عبادة الله الواحد الصمد.

قال الفتىٰ : إن هذه الملكة حكيمة قد جنبت نفسها وشعبها الحرب والدمار، وأظنها أرسلت بقرارها النهائي ذلك إلىٰ سليمان تخبره بحضورها؟

قال الشيخ : نعم، ولما علم بعزمها علىٰ الحضور بنىٰ لها قصرًا فخمًا لتنزل فيه. ثم قَالَ: يَا أَيُّهَا المَلأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *

قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ
وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ *

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ

قَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي
لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ
وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ[1].

قال الفتىٰ : وما هو ذلك العرش..؟

---

(١) سورة النمل: ٣٨-٤٠.

قال الشيخ : إنه الكرسي الذي كانت تجلس عليه الملكة في قاعة العرش بسبأ، وكان هذا الكرسي مطعمًا بالذهب والماس والجواهر الكريمة، كما وصفه الهدهد، فأراد سليمان ألَّا يحرمها من الجلوس عليه، ثم في الوقت نفسه ليُظهر لها سلطانه علىٰ الإنس والجن والقدرة الإلهية التي جاءت بكرسي عرشها لتجده أمامها في القدس بعد أن تركته في قصرها باليمن. ولما جيء بالعرش

قال سليمان : نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا

نَنظُرْ أَتَهْتَدِي

أَمْ تَكُونُ مِنْ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ[١].

قال الفتىٰ : وماذا كان يقصد سليمان من أن ينكر لها عرشها؟

قال الشيخ : لم تكن إلا مداعبة لطيفة منه للملكة ولذلك لما جَاءَتْ قِيلَ: أَهَكَذَا عَرْشُكِ...؟

قَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ

قيل لها: ادْخُلِي الصَّرْحَ

«فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا»

قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ

قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[٢].

---

(١) سورة النمل: ٤١.

(٢) سورة النمل: ٤٢-٤٤.

قال الفتىٰ : لماذا تكلم العفريت أمام سليمان ليحضر عرش بلقيس..؟

قال الشيخ : لأن العفريت من الملأ الذي كان يخاطبه سليمان، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1].

﴿وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[2].

ولقد استعمل سليمان الإنس والجن في إنشاء الهيكل العظيم، وهو أكبر معبد وأقدمه لليهود ولا زالت آثاره باقية للآن في القدس، كما بنىٰ العمارات الشاهقة، وأنشأ أسطولًا بحريًا عظيمًا كان يمخر عباب البحار للتجارة في البحر الأبيض المتوسط، كما استخدم الجن في قطع الأحجار من الجبال وتعبيد الطرق، وسُخرت له الشياطين كل بنّاء وغواص في بناء القصر الضخم الذي نزلت فيه بلقيس، وكان من المرمر والزجاج، وصنع القدور الكبيرة التي لا تتحرك لثقلها، والجفان وهي الأحواض، ثم التماثيل.

---

(١) سورة النمل: ١٧.

(٢) سورة سبأ: ١٢-١٣.

قال الفتىٰ : ولماذا قصد العفريت أن يأتي بعرش بلقيس في الزمن القصير قبل أن يقوم من مقامه، وقد يكون ساعة أو دقائق؟

قال الشيخ : يعتقد كثير من الناس أن الجن لها سلطان عظيم.. وقادرة علىٰ كل شيء في أسرع وقت لأنها أثيرية الانتقال. وقد ضرب الله هذا المثل في هذه القصة ليعلم الناس أن الله قد يختص واحدًا من البشر بقوة أكبر من سلطان الجن.. فهذا الذي عنده علم من الكتاب، أي الذي كُشف عنه الحجب وعرف أنه هو الذي قدّر الله عليه أن يأتي بالعرش في لحظة قال لسليمان ظاهريًا أنه سيحضره في طرفة عين.

وكان ما قال... ومن هذا يتبيَّن أن القدرة الإلهية فوق قوة الجن... ولولا أن هذا هو المقصود لكلف سليمان العفريت أن يحضر العرش قبل أن يقوم من مكانه... وهي أيضًا فترة من الزمن قد تكون دقائق معدودات وهي ليست كبيرة وتعتبر في الوقت نفسه معجزة لاستحضار العرش من اليمن إلىٰ القدس.

قال الفتىٰ : لقد اتسعت مملكة سليمان بانضمام اليمن إلىٰ مُلكه بالشام؟

قال الشيخ : نعم، وكان ذلك استجابة من الله لدعوة توجّه بها سليمان إلىٰ الله حيث قال:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

قال الفتىٰ : أظن سليمان كان يقطع وقتًا طويلًا في السفر والتنقل بين أرجاء مملكته بعد أن اتسعت هكذا؟

قال الشيخ : لقد يسر الله له ذلك بطريقة سريعة وكانت سببًا في أن يخترع الناس بعده بنحو خمس وعشرين قرنًا أنواع الطائرات كلها.. فإن الله سخَّر له الريح ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[2].

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[3].

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[4] وكان سليمان والوزراء يركبون بساط الريح يتنقلون به بين أطراف المملكة. إن شاء أمر الريح تكون هادئة في سيرها، وإن شاء تكون عاصفة سريعة تنقله إل المكان الذي يريده عاجلًا.

قال الفتىٰ : لقد أصبح مُلك سيدنا سليمان حقًّا لا ينبغي لأحد من بعده فلم يحقق لأي بشر من بعده فعلًا سواء أكان نبيًا أم ملكًا

(١) سورة ص: ٣٥.
(٢) سورة ص: ٣٦.
(٣) سورة الأنبياء: ٨١.
(٤) سورة سبأ: ١٢.

أن كان له هذا السلطان العظيم علىٰ الإنس والجن والطير والرياح، حتىٰ في القرن العشرين هذا لم يتيسر لإنسان ما أن تكون له هذه السلطات في آن واحد، فمثلًا قد تحقق للفوهرر «هتلر» زعيم ألمانيا السلطة العسكرية علىٰ ملايين الجنود من ألمانيا ودوخ بهم العالم وانتصر في المعارك انتصارات مذهلة. وبصرف النظر عن النهاية الغير مرضية له فإنه كان أكبر شخصية في العالم وكانت يداه تقبض علىٰ مستقبل الدول، وكان بجانب هذا له السلطان في الجو فقد كانت طائراته النفاثة وغيرها تسد عين الشمس وتنزل الخراب والدمار أينما توجهت، ولكن «هتلر» هذا الجبار الشامخ بأنفه دائمًا لم يكن له سلطان علىٰ الجن أو علىٰ الطير. وبهذا قد توصل فقط إلىٰ نصب ما وهب سليمان من سلطان في الأمور الدنيوية فقط.

قال الشيخ : جميل استنتاجك يا بني هذا، ورأي سديد قد غاب عني استنباطه لك.. ولكن الله يؤتي الحكمة من يشاء من عباده مبكرًا أو بعد حين.

قال الفتىٰ : عفوًا سيدي.. فالفضل منك وإليك وما أنا إلا مرآة تعكس نورك وأنوارك.. واستكمالًا للموضوع أقول أنه لن يصل أحد إلىٰ مثل ما وصل إليه سليمان وسيظل متميزًا ومتحققًا علىٰ طول الزمان بسلطانه علىٰ الجن والطير لأنه نبي..

قال الشيخ : نعم وهذه حقيقة لا شك فيها. فلم يُخلق من قبله ولا من بعده من كان له سلطان علىٰ الجن والطير معًا مثل سيدنا سليمان.

قال الفتىٰ : وهل كان يستطيع سيدنا سليمان أن يستعمل بساط الريح في الدوران حول الأرض كسفينة الفضاء؟

قال الشيخ : كان يستطيع ذلك لو أراد لأن الريح التي كانت تحمله مسخرة بأمره حيث يشاء، وكانت لها ميزة عن سفينة الفضاء والصواريخ الحالية هو الأمان والسلامة، لا خطر فيها ولا انزعاج، تسير آمنة مطمئنة علىٰ أي ارتفاع يشاء وإلىٰ أي مكان يريد... أوَ لم تسمع في هذه الأيام نبأ سفينة الفضاء الروسية (سوبر ١٠٠) التي دارت حول الأرض عدة مرات ثم عبر نزولها علىٰ الأرض وعلىٰ ارتفاع منها بنحو سبعة كيلو مترات حدث خلل بها فهوت إلىٰ الأرض فتهشمت وحُرق فيها قائدها كوماروف في شهر أبريل سنة ١٩٦٧ فأين ذلك من بساط سليمان الذي كانت تحمله جنود لم يروها من الجن والملائكة يرتفع برفق وينزل برفقين..

قال الفتىٰ : وما معنىٰ يرتفع برفق وينزل برفقين..؟

قال الشيخ : بجانب جمال التعبير فإنه يرتفع برفق من الملائكة الموكلة بالرياح، وأما يينزل برفقين بمعرفة الجن والملائكة معًا.

قال الفتىٰ : يقال أن سيدنا سليمان كان له خاتم يلبسه.. وفيه سر سلطانه، فهل هذا صحيح..؟؟

قال الشيخ : إن الله قد منح سليمان ذلك السلطان ذاتيًا مثل أبيه داود من قبل، وكونه كان يلبس خاتمًا.. فكان ذلك من مستلزمات السلطان الدنيوي ليوقع به علىٰ رسائله فقط. وربما كان هذا الخاتم مباركًا فقط لأنه تشرف باسمه واصطلح الناس علىٰ تعرف رسائله بهذا الخاتم فقط. لهذا لم تكن لذلك الخاتم أسرار ذاتية.

قال الفتىٰ : يقال إن سليمان قد أنجبه أبوه داود من امرأة كانت زوجة لجندي يحارب في جيشه فأُعجب بها داود في غياب زوجها واضجع معها فحملت منه.. ثم اتفق داود مع قائد جيشه أن يتخلص من ذلك الجندي بقتله في ميدان الحرب لتخلو له زوجته، ونُفذت الخطة وتزوج داود تلك المرأة التي ولدت له بعد ذلك سليمان.

قال الشيخ : لقد ورد ذلك في الإصحاحات التي دوّنها بنو إسرائيل من بعد موسىٰ، ولم تكن طبعًا في التوراة التي نزلت علىٰ موسىٰ لأن داود وسليمان جاءا من بعده، ولذلك نقولها براحة واضحة بأنها من الإسرائيليات الموضوعة والملصقة بالتوراة إفكًا...

وأما من وجهة النظر الإسلامية فحن نبرئ الأنبياء جميعًا من مثل هذه الجرائم لأنهم معصومون عن ارتكابها

ومنزهون عن اقتراف الخطايا والكبائر، فكيف يُستساغ أن يكون داود نبيًا ويرتكب جريمة الزنا مع امرأة هي زوجة لجندي في جيشه ويحارب أعدائه، ثم يتآمر داود مع قائد جيشه علىٰ قتل ذلك الجندي البريء لتخلص له تلك المرأة ويتزوجها داود وهي حامل منه، ثم تحمل مرة أخرىٰ وتلد له سليمان.. وفي هذه الحالة يكون داود زانيًا وقاتلًا.. وأما سليمان يكون أبوه امرأ سوء وتكون أمه بغيًا.. وحاشا أن يكون كذلك أنبياء الله ورسله بهذا الوصف الساقط، فالإسلام يرفعهما مكانًا عليًا تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمـًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[(١)].

قال الفتىٰ : لقد ربط بعض المفسرين قصة الخصمين اللذين تسورا المحراب علىٰ داود وكان لأحدهما تسعة وتسعون نعجة وللآخر نعجة واحدة.. بتل القصة المفتراة علىٰ داود مع تلك المرأة زوجة الجندي في جيشه.

قال الشيخ : القول عندي ما شرحته لك من قبل في قصة الخصمين فهي رمزية للفصل في القضاء، وليس لها ارتباط بقصة هذه

(١) سورة النمل: ١٥-١٦.

المرأة، وأنها كذب وافتراء علىٰ سيدنا داود، حتىٰ أن سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه كان يقيم الحد علىٰ من يتقوّل علىٰ سيدنا داود بهذا الافتراء الكاذب ويعتبره قذفًا في حق نبي، وكان يعاقبه بالجلد مائة وستين جلدة.

قال الفتىٰ : لقد أثلجت صدري يا سيدي بهذا الشرح، وأزحت عني همًّا كان هو الصراع بين إيماني وعقلي في الموضوع.. وإني الآن أرىٰ «نملة» في هذا القسم، فما قصتها..؟

قال الشيخ : كان سليمان من عادته إذا سار متنقلًا فإنه تحيط به كوكبة من جنوده من الإنس والجن والطهير مُظهرًا لعظمة مملكته التي وهبها الله له لا تيهًا ولا خيلاء ولكن لتنفيذ أن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده.. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

ويمكن اعتبارها من وجهة النظر العسكرية إظهارًا لقوته حتىٰ يخافه الأعداء ويخشوا بطشه ونفوذه. حتىٰ إذا أتوا علىٰ وادي النمل قالت نملة:

يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ
وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ❊

سليمان : فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا

(١) سورة الضحىٰ: ١١.

وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ(١).

قال الفتىٰ : وكيف سمع سليمان قول تلك النملة وكانت علىٰ مسافة ما منه؟

قال الشيخ : لقد وهبه الله منطق الطير وقوة السمع فلا تستكثر عليه ذلك لأن الله علىٰ كل شيء قدير.. ومن يدريك في أن يكون مثل هذا التخاطب بين سليمان والطيور والحيوانات بطريقة لا نعرفها كأن تكون بالتفكير الإرادي الذي ينقل إلىٰ سليمان وينطبع بالمعاني علىٰ حواس الفكر والعقل عند سليمان فيفهم ما تريد ويرد عليها بنفس الطريقة كما لا يستبعد أن يكون بالصوت والحروف وقوة السمع.

قال الفتىٰ : وأين كان وادي النمل هذا..؟؟

قال الشيخ : ليس مهمًا أن يُعرف مكان وادي النمل، ولكنه كان بطبيعة الحال في جهة ما من مملكته، والمقصود به تجمُع للنمل. وفزعت واحدة منه وأمرت باقي النمل أن يدخلوا جحرهم

(١) سورة النمل: ١٨-١٩.

تحت الأرض حتىٰ لا تدوسها أقدام سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

قال الفتىٰ : وما الحكمة من هذه القصة؟

قال الشيخ : أثارت في سليمان شعور الفضل الكبير الذي أنعمه الله عليه حتىٰ يسمع كلام النملة وهي تحذر باقي النمل من مسيرة سليمان ليفروا من الموت المحقق، وربما تمهل سليمان حتىٰ نجا النمل من طريقه. ولولا ذلك لمات النمل جميعه ويصبح سليمان مسئولًا عن ذلك أمام ربه، فهي بذلك قد أسدت إليه جميلًا يعفيه من حساب ربه عن ذلك النمل وهو أمة في أمم مملكته عليه حمايته لا قتله.. ثم إن سليمان توجه إلىٰ الله بالدعاء أن يوفقه للعمل الصالح وأن يدخله برحمة الله وليس بعمله في جنات النعيم مقرّ الخلد لعباده الصالحين، ورغم أنه نبي فلم يأمن مكر الله وطلب منه الرحمة.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في هذا القسم أيضًا بعض الخيل المسومة، فما شأنها؟

قال الشيخ : لقد تبيَّن ذلك في قوله تعالىٰ:

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ

فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي

حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ

فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾[1].

فهذه هي الخيل التي كانت تستعملها جند سليمان في الحرب وفتح الممالك المجاورة، وكان النصر حليفه في جميع المعارك، ولهذا كان سليمان يعتني بتلك الخيل عناية فائقة ويمسح علىٰ أرجلها وأعناقها وجسدها شأن أصحاب الجياد الآن. فإن الخيل تستشعر الراحة والاطمئنان والحنان من لمس يد صاحبها لجسدها. فمن المعروف أن الحصان يصهل عندما يرىٰ صاحبه ويضرب الأرض بأرجله ويطأطئ رأسه له يلتمس منه أن يمسح بيده علىٰ رأسه وعنقه، وتلك عادة الخيول مع أصحابها من الناس، فما بالك مع سليمان النبي الذي يعرف لغة الحيوان ويخاطبه ويفهم ما يريد، فقد كان العطف بينهما أشد وأكثر، فهذه القصة تحكي أن سليمان كان يجلس ويأتون له بالخيل تمر أمامه حتىٰ إذا انتهت من العرض وغابت عنه يأمر فتعود إليه فيمسها بيده الكريمة علىٰ أعناقها وسوقها- فيشد من زرها ويمنحها البركة والقوة لتسهم في النصر مع جيشه.

قال الفتىٰ : يُقال إن سليمان قد فُتن فما حقيقة ذلك..؟

(١) سورة ص: ٣١-٣٣.

قال الشيخ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾[1].

ويقال إن سبب ذلك أنه قد عزم في إحدىٰ الليالي أن يطوف بنسائه وربما كُن أربعة أو خمسة ليلدن له أبناء يجاهدون في سبيل نشر عقيدة التوحيد، وأنساه الشيطان ذكر مشيئة الله فلم تحمل نساؤه إلا واحدة منهن فولدت له طفلًا ناقص الخِلقة، فجاءوا به إلىٰ سليمان وهو علىٰ كرسي مملكته فتذكَّر ما حدث منه، فتاب إلىٰ ربه ورجع إليه يستغفره عمَّا حدث منه سهوًا.

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في هذا القسم أخيرًا حشرة صغيرة تدعىٰ «الأرضة» فما قصتها..؟

قال الشيخ : لقد كان لسليمان سلطان كبير علىٰ الجن فمن يعصي أمره يُحرق في الحال، وكان سليمان قاسيًا معهم جدًا يضربهم بسوط من نار إذا ارتكب أحدهم أي مخالفة مع جنسه أو مع أحد من الإنس، وكان يستخدمهم في أشق الأعمال التي لا يقوىٰ عليه الإنس من قطع الأحجار ونحت الجبال والغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، وبناء الصروح والقصور والهياكل والأسوار، فكانوا بحق في عذاب مقيم وتسخير مستمر. ولا يقوىٰ أي جان أن يقترب من محراب سليمان الذي يقيم فيه أو يجرؤ علىٰ أن ينظر

(١) سورة ص: ٣٤-٣٥.

إليه أو يرفع البصر نحوه وإلا احترق في الحال..

ذلك كان سلطان سليمان علىٰ الجن فهل كانوا سعداء بوجوده..؟ كلا.. بل كانت قوة القهر عليهم ساحقة فاستعبدهم سليمان لصالح الإنس وتثبيت مملكته وفي الأعمال الجبارة التي لا يقوىٰ عليها الناس.. ولهذا كان الجن لحكم سليمان كارهين وكانوا ينتظرون انتهاء حكمه بفارغ الصبر إلىٰ أن مات وخرجت روحه الطاهرة من جسده الطاهر وهو واقف متكئ علىٰ عصاه يشرف علىٰ الجن في عملهم من شرفة محرابه.. وقد خفي علىٰ الناس وعلىٰ الجن موته لحكمة يعلمها الله حتىٰ يستكمل الجن ما كُلفوا به من عمل، كما في قوله تعالىٰ:

مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ (أي عصاه)
فَلَمَّا خَرَّ
تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ
مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ[١].

قال الفتىٰ : رحم الله سيدنا سليمان الحكيم، ففي قصته عبرة لأولي الألباب وعظة للناس أجمعين. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

(١) سورة سبأ: ١٤.
(٢) سورة الذاريات: ٥٥.

القسم (٩)

عهد يونس

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ عهد «يونس» عليه السلام
وإني أرىٰ في هذا القسم حوتًا ضخمًا يبلغ طوله ثلاثين مترًا يسبح في الماء فما قصته..؟

قال الشيخ : إنه الحوت الذي ابتلع يونس وظل في بطنه بضعة أيام ثم أخرجه من جوفه ثانيةً علىٰ الشاطئ.

قال الفتىٰ : وهل بقي يونس حيًّا في بطن الحوت ولم يمُت؟

قال الشيخ : نعم. لأنه كان نبيًّا وسولًا وتلك معجزته، ولو كان شخصًا عاديًا لأكله الحوت طعامًا في بطنه لكنه لم يُمسّ بسوء ولذلك يقول الله فيه:
﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا كان يقول في تسبيحه؟

---

(١) سورة الصافات: ١٣٩-١٤٤.

قال الشيخ : ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

قال الفتىٰ : لماذا استقل يونس الفلك ولماذا أُلقي به في الماء؟

قال الشيخ : لقد أرسل الله يونس إلىٰ أهل «نينوىٰ» في إقليم سوريا ليهديهم لعبادة الله وينقذهم من عقيدة الشرك، فكانوا يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وتمادىٰ القوم في إصرارهم علىٰ الشرك ولم يستجيبوا لرسالة يونس ونُصحه لعبادة الله الواحد الأحد، فيئس منهم وذهب مغاضبًا من قومه بعد أن بلَّغ رساله دون أن تتحقق له هداية الناس. وتوجّه إلىٰ مدينة علىٰ ساحل البحر الأبيض المتوسط واستقل سفينة تجارية كانت علىٰ وشك الرحيل.

وحدث أن تعرضت السفينة لأمواج هائجة ورياح عاصفة كادت أن تودي بالسفية في قاع البحر غرقًا فأراد ربانها أن

(١) سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨.

(٢) سورة الصافات: ١٤٥-١٤٨.

يخفف من حمولتها فاقترعوا علىٰ من فيها، ووقعت علىٰ يونس فأُلقي في الماء، وكان في هذه اللحظة ينتظره ذلك الحوت بجانب السفينة فاتحًا فمه الواسع له فتلقفه بلطف ولكنه لم يكن عليه قاسيًا عندما أطبق عليه فكيه ليزدرده- أي يبتلعه- إلىٰ جوفه، وفي بطنه كان هناك متسع ليونس فجلس يذكر الله وهو مكظوم مستغيثًا بالله أن يُنجيه من هذا الكرب الذي يعانيه وهو في ظلمات بطن الحوت وظلمات المياه العميقة في البحر اللجي الذي يعلوه موج من فوقه موج. فلول أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلىٰ يوم يُبعثون. وشاء الله أن يبقىٰ يونس في بطن الحوت بعض الأيام لم يُعرف تحديدها لأن يونس كان في ظلمات لا يتميز فيها الليل عن النهار ولا يعلم مدة بقاءه في الحوت إلا الله. ثم أمر الله بعد ذلك الحوت فلفظه علىٰ الساحل، وأنبت الله له شجرة تقيه حرارة الشمس حتىٰ أفاق من هول ما حدث له، ثم أوحىٰ الله إليه أن يذهب إلىٰ أهل «نينوي» مرة أخرىٰ ويعيد عليهم النُصح والإرشاد ليهتدوا، وفعلًا تم له ذلك، ولما رجع إليهم، وطبعًا أخبرهم بما حدث له هو أيضًا مع الحوت، آمنوا بدعوته، وهداهم الله أخيرًا لعبادته.

قال الفتىٰ : حقًّا لقد كانت سيرة سيدنا يونس عجيبة بتميزها بهذا الحوت، ولكل نبي معجزة تختلف شكلًا وموضوعًا عن الآخر.

❁ ❁ ❁

القسم (١٠)
عهـد العــزير

قال الفتىٰ : وإني أرىٰ في هذا القسم «حمارًا» فما قصته؟

قال الشيخ : إنه حمار «العزير» وقد كان فتىٰ مؤمنًا من بني إسرائيل، وحدث أن ركب حماره هذا حاملًا معه طعامه وشرابه وسار لبعض شأنه في قرية أخرىٰ علىٰ مسافة بعيدة. وفي الطريق استراح في ظل جدار بقرية خاوية علىٰ عروشها، ونظر إلىٰ قبور القرية أمامه فأيقظت في نفسه تساؤلات عن البعث والنشور..

فقال : أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا
فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ
ثُمَّ بَعَثَهُ

وأرسل الله له جبريل في صورة رجل يسأله:

قَـالَ : كَمْ لَبِثْتَ
قَالَ العزير: لَبِثْتُ يَوْمـًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
قَـالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ
وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ
وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ
وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا
ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمـًا

قَالَ العزير: أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1].

قال الفتىٰ : أظن هذه القصة فريدة في نوعها لأنها تفسّر عمليًا مشكلة يستعصي علىٰ العقل دائمًا في كل الأزمان تصديقها وهي مسألة البعث.

قال الشيخ : نعم لقد أورىٰ الله «العزير» أمام عينيه كيف تجمعت عظام حماره ثم كساها الله لحمًا ودمًا ثم دبت فيه الحياة، وانتفض واقفًا كما كان، وأعاد الله له طعامه وشرابه كما كان لم يتغير لونه أو طعمه، وفي تصديق العزير لحالة البعث هذه تصديق لجميع المعترضين عليه، وليسلموا بأن الله قادر علىٰ أن يجمع أجزاء كل جسم من الإنسان وتتكامل مع بعضها وتعود إليها الحياة يوم النشور لتُحاسب كل نفس أمام ربها عمَّا فعلت من خير تجده محضرًا، وإن شرًّا فكذلك.

ولقد كان وجود الحمار في الحالة هذه ليشهد العزير طريقة النشور، ولكنه لم يشعر بها وظن أنه كان في حالة نوم يومًا أو بعض يوم. ولهذا قال الله فيه ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾.

قال الفتىٰ : وكيف تحقق له أنه لبث مائة عام؟

قال الشيخ : ركب «العزير» حماره ورجع إلىٰ قريته فوجدها قد تغيّرت عالمها وتبدَّلت مساكنها، فأخذ يسأل أهلها عن قومه

(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

فأنكروه أولًا ثم تعرَّف عليه شيوخ القرية بعد جهد، وقصَّ عليهم قصته فآمنوا بما أخبرهم، وتحقّق أنه فعلًا قد مضىٰ عليه قرن من الزمان ميتًا، ولكن هذه القصة لم تؤتِ ثمرها المطلوب، فكان المنتظر أن تُزيد المؤمنين إيمانًا علىٰ إيمانهم ولكنها أتت بعكس ما كان مُقدَّرًا لها.

قال الفتىٰ : وكيف ذلك، إني كنت معتقدًا أن بني إسرائيل يفردون له سفرًا يضمونه إلىٰ التوراة ليهتدي به القوم في دينهم.

قال الشيخ : لقد فُتن بنو إسرائيل بالعزير وأضلَّهم الشيطان وزيَّن لهم طريق الكفر عن سبيل الرشاد حتىٰ..

﴿قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[١].

قال الفتىٰ : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾[٢].

❁ ❁ ❁

(١) سورة التوبة: ٣٠.

(٢) سورة الكهف: ٥.

القسم (١١)

عهـــد أيـــوب

قال الفتىٰ : ننتقل الآن إلىٰ عهد «أيوب» عليه السلام
وإني أرىٰ في هذا القسم بعض الدواب من الأنعام.. فما قصته؟

قال الشيخ : إن هذه الأنعام كانت ملكًا لأيوب عليه السلام، ثم ابتلاه الله بهلاك أمواله وموت أنعامه.. ثم امتحنه أيضًا بصنوف أخرىٰ من البلاء فصبر ورضي بقضاء الله فيه، وآثر الحمد والشكر له علىٰ الجزع والشكوىٰ. فكافأه الله بأن أحيا له هذه الأنعام ثانيةً بعد سبع سنوات من موتها.

قال الفتىٰ : وأين كان يقيم سيدنا أيوب، وفي أي عهدٍ حدث له ذلك؟

قال الشيخ : كان أيوب مقيمًا بالشام، وكان عهده بعد سيدنا بموسىٰ» بعدة قرون، لأن سفره في العهد القديم هو الثامن عشر، ولم يكن ضمن الخمسة أسفار الأولىٰ أساس التوراة التي نزلت في عهد موسىٰ، ولكن سفر أيوب كان ضمن أسفار أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا بعد عهد موسىٰ وحُررت أسفارهم بمعرفتهم وأضافوها إلىٰ توراة «موسىٰ»، وأصبحت العهد القديم، ولقد كان أيوب من نسل عيسو توأم يعقوب بن إسحق عليهما السلام، وكانت زوجته تسمىٰ «رحمة» من أقاربه أيضًا. وكان ايوب غنيًّا موسرًا يعيش سعيدًا بأمواله الكثيرة، وقريرًا بأولاده السبع، ومع هذا

الثراء الفاحش الذي كان ينعم فيه كان أيوب متعبدًا تقيًّا يذكر الله دائمًا بالشكر والثناء علىٰ وفرة رزقه من أموال وبنين ونعمة الأيمان العظيم. والله يعلم صدق تقواه وإيمانه ومبلغ تواضعه وإحسانه، فكثيرًا ما يورث الغنىٰ الطغيان، وقد يؤدي أحيانًا إلىٰ الكفر والفساد، والله الذي خلق أيوب وميّزه بهذه الأخلاق الكيمة الفاضلة: أراد أن يجعل منه نموذجًا حيًّا واقعيًا للبشرة لتتأسىٰ به عند المصائب ونزول المكاره وحدوث النائبات..

فابتلاه الله ليكون المثل الأعلىٰ الذي يُحتذىٰ به في الصبر كما شاء الله لكثير من الأنبياء أن يجعل دائمًا من حياتهم الشخصية نماذج للناس وأسوة حسنة ليسيروا علىٰ هداهم، ويتمثلوا بهم في الإيمان والصبر والشجاعة والفاقة والصدق والإخلاص، وما كانت معجزاتهم إلا قرينة علىٰ صدق دعواهم، لأن الناس دائمًا يطلبون المعجزات حتىٰ يؤمنا بمن يدعي النبوة.

قال الفتىٰ : وما هو البلاء الذي امتحن الله به أيوب...؟

قال الشيخ : لو نزل بلاء «أيوب» علىٰ الجبال لاهتزت وتصدَّعت وارتفع أنينها وضجرها إلىٰ عنان السماء مستصرخة شاكية، ولكن أيوب تحمله بقلب المؤمن الصابر الراضي بقضائه وقدره- فقد ابتلاه الله في الأموال والأولاد والصحة.

وهل الحياة تتمثل إلا في هذه الأمور الثلاث، فكيف لو تخلَّت كلها عن الإنسان دفعة واحدة- فلا بد وأن يضيق ذرعًا بالدنيا ويؤثر الموت علىٰ الحياة فرارًا من قضاء الله، ولكن أيوب عليه السلام تقبّل أمر الله بالنفس المطمئنة الراضية المرضية.. تلقىٰ نبأ هلاك أمواله من زرع وضرع ودواب بالشكر لله لأنه أخذ ما أعطىٰ فهي نعمه التي وهبها له من قبل، إن شاء إبقاها، وإن شاء استردها.. ثم تقبّل الصدمة الثانية بموت أبنائه السبعة جميعًا تحت سقف بيت خرَّ عليهم فحزن قلبه ودمعت عيناه لفراقهم ثم تولىٰ إلىٰ محرابه ساجدًا لربه مسبحًا بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون، وما الأبناء إلا وديعة لله وقد استردها- وأي قلب لا يجزع لمثل هذه المصيبة الكبرىٰ في الأولاد فما أشد وقعها علىٰ النفس، وأي صبر هذا الذي يمارسه الإنسان ليسلو به عن فلذات كبده، إنها حالة لا ينفع فيها الصبر ولا السلوان... ولكن أيوب النبي تحمّل صابرًا ورضي قضاه واحتسب إيمانًا. فكان ولا أحد غيره يكون مثله...

وليت الأمر قد اقتصر علىٰ زوال نعمة المال والبنين وأصبح صفر اليدين منهما.. إلا من زوجته الطيبة المخلصة، بل امتحنه الله أيضًا بثالث البلايا وأشد المحن فقد ابتلىٰ جسمه بالمرض الذي أقعده عن السعي لرزقه وذهب عنه لحمه ووهنت قواه، وصار هيكلًا عظميًّا لا يقوىٰ علىٰ الحركة أو الانتقال، وامتد المرض إلىٰ

جميع جسمه ولم يبق منه إلا لسانه الذي يذكر به الله شاكرًا حامدًا... وقد بقي علىٰ هذه الحال من المرض المحزن الأليم سنوات طوال يحتسب اليوم الواحد منها بسنة من شدة الألم والضُّر.. فما أسرع أن يمر اليوم علىٰ السليم، ولكن المريض يمر عليه الزمن دقائق وثوان.

ذلك هو «أيوب» الذي إذا ذُكر ذُكر معه «صبر أيوب» فهل يستطيع إنسان في الوجود أن يتحمَّل مثل ما تحمَّل أيوب.

قال الفتىٰ : لا... ولو امتحن الله البشرية كلها ببلاء أيوب فلن ينجح منها أحد.

قال الشيخ : حقًّا ليس لبشر أن يتحمل مثل هذا البلاء، ولكن أيوب قد أمده الله بقوة التحمل ليتحقق بالصبر من دون الأنبياء، وليكون المثل الأعلىٰ في تحمُّل البلايا علىٰ مرّ الزمن.

قال الفتىٰ : وماذا كان من أمر زوجته فهل كانت مثل في هذه المحن القاسية؟

قال الشيخ : لقد كان الامتحان والابتلاء أساسًا «لأيوب» ليكون صبره نبراسًا يُحتذىٰ به، وأما زوجته فكان صبرها بالتبعية فقط علىٰ فقدِ الأولاد والأموال ولكنها لم تُصب في صحتها. ومما لا شك فيه أنها جزعت علىٰ فقدِ أولادها أكثر وأشد من زوجها أيوب لأنها الأم، والأمهات رقيقة العاطفة لا تتحمّل بالصبر موت أبنائها، فما أسرع أن تشق الجيوب وتلطم الخدود وتصرخ باكية منتحبة لتفرّج عن حزنها علىٰ

وليدها. وهذه طبيعة الأمهات من النساء، وأما زوجة أيوب فحسابها عن ربها. ولا تنس أنها كانت تعول أيوب في مرضه الطويل هذا وتسعىٰ بنفسها علىٰ الرزق لهما وتخدمه طيعة مخلصة.

قال الفتىٰ : نِعمَ الزوجة «رحمة» زوجة أيوب المبتلىٰ، ولها حقًّا من اسمها نصيب في طباعها وأخلاقها، فهي مثال الزوجة الوفية المخلصة.

قال الشيخ : لقد كانت هذه الزوجة تخشىٰ أيوب وترتعد منه فرائصها إذا غضب عليها رغم أنه لا قوة له ولا حول وهو في أيام مرضه كومة من العظم لأنها تعلم أن دم النبوة يجري في عروقه، وإذا غضب غضب له الرحمن فلا تؤمن العاقبة بعد ذلك..

فلقد حدث مرة أن كلفها باستحضار حاجة له من السوق فأبطأت قليلًا فأقسم ليضربنها مائة ضربة بعد أن يبرأ من مرضه.

قال الفتىٰ : أظن المرض قد أثر علىٰ أعصابه وجعلها متوترة دائمًا تثور لأتفه الأمور. ولهذا يقول الله ﴿لَيْسَ عَلَىٰ الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾(١).

---

(١) سورة النور: ٦١.

قال الشيخ : ولكن الله الذي يعلم صدق إخلاص زوجة أيوب وحُسن وفائها وقيامها بخدمته ليلًا ونهارًا وتحمُّلها البلاء معه صابرة مستسلمة فقد حلّل الله يمين أيوب بطريق الرخصة التي يقرها الشرع إلىٰ يومنا هذا.

قال الفتىٰ : وكيف ذلك؟

قال الشيخ : إذ نادىٰ أيوب ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1]، وكذلك: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[2].

أي أنه قد تحمّل الألم والأسىٰ في مدافعة الشيطان الذي يوسوس له دائمًا ليجزع ويقنط من رحمة الله، ويستغيث أيوب بربه أن يُبعد عنه الشيطان بعد هذه السنوات اسبع التي قضاها في المرض صابرًا غير متبرم، راضيًا غير متضرر.

قال الفتىٰ : أظن أن الله قد أبعد عنه وساوس الشيطان وكفاه آلام المرض؟

قال الشيخ : نعم.. ورفع عنه البلاء أيضًا بعد أن وصل إلىٰ الذروة من الصبر وتحقق به.

قال الله: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٣.

(٢) سورة ص: ٤١.

فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ
وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ
رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ[1].

قال الفتىٰ : وكيف حدث هذا فإنها أمور عجيبة..؟

قال الشيخ : لقد أوحىٰ الله إلىٰ أيوب أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[2].. أي أنه ضرب الأرض بقدمه- أخذًا بالأسباب فتفجَّر نبع من الماء البارد بين يديه فاغتسل منه وشرب فشفي من مرضي وبرئ من سقمه فورًا- وعادت إليه صحته كا كانت وكأنه لم يُصب بمرض سابق، كما أحيا الله له أولاده، وأحيا له كذلك أنعامه التي تراها في القسم، وولدت له زوجته مثل عدد أبنائه فتضاعفت أولاده، وبارك الله له في أمواله، وعادت له أيام الرخاء والسعادة والعز والثراء بفضل صبره ورضائه بقضاء الله.

قال الفتىٰ : وماذا فعل مع زوجته فهل نفذ حلفه وضربها مائة جلدة..؟

قال الشيخ : قلت إن الله حلّل له قسمه وقال له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[3].

(١) سورة الأنبياء: ٨٤.
(٢) سورة ص: ٤٢.
(٣) سورة ص: ٤٤.

قال الفتىٰ : وما تفسير ذلك؟

قال الشيخ : إن الله أمر أيوب أن يمسك بحزمة بها مائة عود من القش ويضرب بها زوجته مرة واحدة كأنه ضربة مائة ضربة، وفي هذا تحلُّل للقسم ورخصة في الشرع يُعمل بها أيضًا في مثل هذه الحالات.

قال الفتىٰ : إن قصة «أيوب» النبي ذكرىٰ وعظة لأُولي الألباب فقد ساقها الله ليتأسىٰ بها الناس إذا نزلت بهم المصائب وتعرضوا للمكاره وعاديات الزمن ليصبروا وليكونوا «أيوبيين» لأن الله مع الصابرين.

❁ ❁ ❁

القسم (١٢)

المسيح عيسى ابن مريم

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في هذا القسم طيرًا وخفاشًا، فهل هذه التي خلقها المسيح؟

قال الشيخ : نعم، وقد خلق من الطين «الخفاش» الذي يجمع بين الطائر والحيوان لأن له أجنحة يطير بها كما أن له ثديًا ويلد. وقد كانت هذه معجزة عيسىٰ لليهود ليؤمنوا برسالته، كما ورد في القرآن الكريم، إذ قال لهم عيسىٰ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾[١].

قال الفتىٰ : وهل كانت الطيور التي يخلقها مثل الطيور العادية في كل شيء، أم تكون خالدة؟

قال الشيخ : لقد كانت هذه الطيور التي يخلقها تطير حتىٰ إذا غابت عن الأنظار سقطت وتلاشت، فكان خلقها كمعجزة فقط وليتميّز عنه خلق الله الدائم الطبيعي حسب الناموس.

قال الفتىٰ : لم نعهد من قبل معجزة الخلق في أحد الأنبياء، فهل تحقق بها عيسىٰ من بينهم؟

---

(١) سورة آل عمران: ٤٩.

قال الشيخ : نعم، ورغم هذه المعجزة الكبرىٰ وغيرها من الآيات العجيبة التي اختُص بها عيسىٰ، لم يؤمن بنو إسرائيل بل كذَّبوه واضطهدوه، وتآمر كهنة اليهود والأحبار علىٰ قتله.
ولم يؤمن بالمسيح من اليهود في حياته إلا فئة قليلة مستضعفة لم تجرؤ علىٰ الدفاع عنه في محنته أو حمايته من أعدائه الكهنة، أو الذود عنه عند القبض عليه، أو القتال دونه، لينقذوه من حكم القتل والصلب الذي قررته الكهنة عليه ظلمًا، إلىٰ أن أنقذه الله في اللحظة الأخيرة وطمأنه بقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1].
ولذلك رفعه الله بجسمه إلىٰ السماء معززًا مكرّمًا ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2].

قال الفتىٰ : وكيف شُبِّهَ لهم؟

قال الشيخ : تسألني عن عقدة العقد فهي مناط العقيدة عند المسيحيين ومحور الخلاف بينهم وبين المسلمين، وقد أفاض القرآن في هذا الموضوع ليكشف للناس ما خفي عليهم في عيسىٰ ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ولكن هيهات أن يقتنع الناس، فقد ظل كل فريق علىٰ عقيدته واستمروا في الجدل والنقاش قرونًا طويلة وستظل حتىٰ قيام الساعة.

---

(١) سورة آل عمران: ٥٥.
(٢) سورة النساء: ١٥٧.

قال الفتىٰ : ولماذا هذا الخلاف المستعر علىٰ حقيقة ثابتة قد قطع فيها القرآن برأي واضح..؟

قال الشيخ : وهل آمن الناس جميعًا بالقرآن في مختلف أنحاء العالم.. طبعًا لا. فلم يؤمن به إلا المسلمون فقط.. ولقد كان المسيح بحق حديثًا عجبًا في الدنيا فقد لازمته حالة التشبه والتمثيل عند الحمل به، وعند الوفاة أيضًا، أي وقت خلقه في بطن أمه، وعند الصلب.

قال الفتىٰ : وكيف لازمته حالة التشبه عند الحمل وعند الصلب..؟

قال الشيخ : التشبه والتمثيل عند الحمل لأن أمه العذراء مريم قد حملت به عن طريق ملاك الرب جبريل الذي جاءها في شبه رجل كما ذُكر في القرآن.

قال تعالىٰ: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانـًا شَرْقِيّـًا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابـًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّـًا

قالت : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّـًا

قال : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامـًا زَكِيّـًا

قالت : أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّـًا

قال : كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا

وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً[1].

وأما التشبه عند الصلب فإنه عندما همَّ اليهود بصلبه شُبِّه لهم ورُفع عيسىٰ إلىٰ السماء بجسمه وروحه، ووقع الصلب علىٰ شبه مثيل له متشكِّل بصورة عيسىٰ، لأن روح المسيح من الأرواح ذات الصفات المتطورة مثل أرواح الأنبياء والأولياء التي لها خاصية القدرة علىٰ التشكُّل في أي صورة تريدها بإذن الله، لأن الأجسام النورانية كالملائكة، والأرواح البشرية النورانية، والأجسام النارية كالجان لها قدرة التشكل في أي صورة تريدها، وهذه خاصية ميّزها بها الله عند خلقها.

قال الفتىٰ : ولماذا استعاذت مريم بالله من الملاك جبريل..؟

قال الشيخ : لأنه جاءها في صورة رجل آدمي ظنته يبغي بها سوءًا وهي الطاهرة التقية فتوجهت إلىٰ الله بكل قلبها لينقذها منه وهي في حالة الخوف والفزع والغضب وقالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت رجلًا مؤمنًا تخشىٰ الله، فلما أجابها جبريل أنه رسول الله إليها اطمأنت نفسها وهدأ روعها، وأنزل الله السكينة في قلبها، وأخذت تناقشه كيف تحمل بغلام ولم يمسّها إنسان، ولها العذر في هذا السؤال لأنه يهمها بوصفها ستكون أمه فأقنعها جبريل بأن الله علىٰ كل

---

(١) سورة مريم: ١٦-٢١.

شيء قدير وأنه إذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كُن فيكون. ثم قال لها: ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وهل حملت العذراء مريم بمجرد هذه المناقشة بينهما..؟

قال الشيخ : نعم بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[2] فلقد كانت كلمة الله هي «كُن» عين خلق عيسىٰ في مريم بمجرد تبليغها لها، ثم كان نفخ الروح من الله إلىٰ عيسىٰ المتكوّن من الكلمة عن طريق جبريل نفسه فتلبست الروح تلك النطفة والعلقة المكونة للجنين المخلوق في بطن مريم ثم تدرج في أطوار نموه الطبيعي حتىٰ كمل خلقه في بطنها كالمعتاد لجميع النساء.

ولهذا أصبحت الغلبة في تكوين عيسىٰ للروح أكثر مما تكوَّن فيه من قِبَل أمه، لأن مريم كانت في الموقف السلبي المستسلم وذلك سبب تحقيق عيسىٰ بالروحانيات طول حياته. وبذلك صدق قول الله فيه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ لأن الغالب عليه صورة الحياة، فالقتل عليه محال وإن وقع علىٰ صورة متمثلة له فلا يؤثر عليه أصلًا. كما يُعزىٰ أيضًا

---

(١) سورة آل عمران: ٤٥-٤٦.

(٢) سورة النساء: ١٧١.

لروحانية عيسىٰ العالية صدور الأفعال الخاصة بالقدرة بإذن من الله مثل: إحياء الموتىٰ، وخلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، لأن من خصائص الأرواح أنها لا تطأ شيئًا إلا حيي ذلك الشيء وسرت فيه الحياة، فكان الإحياء لله تعالىٰ والنفخ لعيسىٰ، وكما حدث من «السامري» الذي ألقىٰ بقبضة من التراب من أثر جبريل في تمثال ذهب علىٰ هيئة عجل فدبت فيه الحياة وأخذ يخور ويجري. تلك خاصية الأرواح.

قال الفتىٰ : هل كان هناك تماس بين جبريل ومريم عند نفخ الروح؟

قال الشيخ : لا، ولا يمكن أن يكون هناك تماس مطلقًا، لأن جبريل متشكِّل بصورة تمثيلية فقط لو أمسكته لم تجده شيئًا، وقد سرىٰ النفخ روحانيًا من الله إلىٰ جسد مريم تلقائيًا دون شعور أو حس، ولم يكن هناك حديث بينهما عن النفخ للروح، لأنه كمثل أي جنين آخر عندما يتكوَّن تنزل الروح من برزخها إلىٰ جسم أمه وتتلبس الجنين بقوىٰ أثيرية غير مرئية، وقد ذُكر ذلك في القرآن: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وهل مكث جبريل مع مريم فترة طويلة يُحدِّثها في أمرها هذا؟

---

(١) سورة الأنبياء: ٩١.

قال الشيخ : وما الداعي أن يمكث عندها طويلًا لأنه ليس له مأرب وقد كُلف من الله بتبليغ تلك الرسالة إلىٰ مريم فقط بأنها ستحمل بالمسيح وفي ذلكحكمة بالغة أن تُحاط به علمًا حتىٰ لا تفزع مريم إذ حملت وشعرت بالجنين يتكوَّن ويكبُر في بطنها. لأنه كان من الممكن أن تحمل بعيسىٰ بأمر من الله دون أن يحضر إليها جبريل، والله علىٰ كل شيء قدير.

قال الفتىٰ : الحقيقة أن خلق عيسىٰ من أم فقط، وبدون أب، آية كبرىٰ علىٰ قدرة الله.

قال الشيخ : نعم إنها آية من آيات الله حقًّا، وقد بسطَّها الله للناس لتقبلها عقولهم بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]، وأيضًا ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2].. فهذا النفخ في آدم كذلك النفخ في مريم سواءً بسواء، والأرواح واحدة ولكنها متحققة بقدر من الله.

(١) سورة آل عمران: ٥٩.

(٢) سورة الحجر: ٢٨-٢٩.

قال الفتىٰ : ما دامت روح آدم مثل روح عيسىٰ فهل كان آدم يستطيع أن يخلق طيرًا ويحيي الموتىٰ..؟

قال الشيخ : لقد كانت معجزات عيسىٰ لقومه اليهود ليؤمنوا به وبرسالته، لكن آدم نزل إلىٰ الأرض بمفرده ومعه حواء، فليس هناك أحد في الدنيا يجرىٰ له المعجزات.

قال الفتىٰ : هل حدث أن خُلق إنسان آخر مثل عيسىٰ بدون أب..؟

قال الشيخ : لا فلم يحدث أن خُلق شخص مثل عيسىٰ بدون أب. فإن الخلق الإنساني كان حسب الحالات الأربع الآتية:

أولًا- خلق آدم من طين من غير أب ومن غير أم ثم نفخ الله فيه من روحه فسرت فيه الحياة، وكان أبا البشر، ولم يتدرج في النمو من طفل إلىٰ شاب إلىٰ رجل، بل كان خلقه في جسم الرجولة الكاملة.

ثانيًا- خلق حواء من ضلع من آدم مصورة علىٰ شكل أنثىٰ ثم نفخ الله فيها من روحه أيضًا فصارت امرأة كاملة الخلقة.

ثالثًا- خلق عيسىٰ من أم فقط بدون أب، ونفخ الله من روحه في جسم مريم فصار عيسىٰ خلقًا حيًّا في بطن أمه ثم ولدته طفلًا، ثم كبر وتدرج نموه طبيعيًا إلىٰ شاب ثم إلىٰ رجل.

رابعًا- خلق الجنس البشري حسب الناموس الطبيعي بوجود أب وأم. لكل مولود طفل ثم يكبر حتىٰ يصير رجلًا.

قال الفتىٰ : هل كانت روح عيسىٰ متميزة عن غيرها من الأرواح؟

قال الشيخ : لقد كانت روح عيسىٰ مشرقة بالأنوار الإلهية القدسية قريبة الشبه بأرواح الملائكة، نزلت علىٰ عيسىٰ من الله فكانت مباركة ومؤيدة بالروح القدس، ولكنها في واقع الأمر لا تختلف عن أرواح باقي الأنبياء في الجوهر، وحتىٰ لا نزل في هذا المقام نذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1].

قال الفتىٰ : حقًّا إن الاسترسال في موضوع الأرواح يجرنا إلىٰ آراء يتعذر علىٰ العقل البشري الاقتناع بها لأن العقل مرده الحس والمنطق، أما الروحانيات فهي فوق ذلك المستوىٰ وأكثر علومها غيبية.

قال الشيخ : جميل رأيك ولك الفضل في أنك أوقفتنا علىٰ ساحل الأمان فإن العلوم الروحانية بحرها عميق، ومحيطها واسع، وقوارب النجاة فيها لا تنفع إذا شردت الأذهان، وعميت البصائر، وحتم القضاء.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

قال الفتىٰ : قبل أن نستكمل الحديث عن عيسىٰ هل من المستحسن أن نعرف شيئًا عن حياة أمه العذراء مريم. حيث يبدو أن لها دورٌ مهمٌ في هذا المقام.

قال الشيخ : نعم يحسُن ذلك، بل وأيضًا يستدعي المقام أن نتعرض بالحديث عن زكريا النبي، وأيضًا ابنه «يحيىٰ» النبي الذي كان يبشّر بعيسىٰ ثم قُتل.

قال الفتىٰ : هل كان هناك أنبياء في عهد عيسىٰ؟

قال الشيخ : نعم كان هناك أنبياء في بني إسرائيل في عهد عيسىٰ ومعاصرون له، وقبل أن يبدأ بالدعوة لرسالته مباشرةً، فكان زكريا النبي كبير الكهنة في المعبد، وابنه يحيىٰ النبي أيضًا الذي كان يكبُر المسيح بستة شهور فقط، ثم قُتل يحيىٰ، وقام المسيح من بعده مباشرةً بالتبشير بدعوته ونشر رسالته.

قال الفتىٰ : وكيف يتواجد ثلاثة أنبياء في وقت واحد لشعب واحد هم بنو إسرائيل؟

قال الشيخ : حقًّا حدث هذا، ولكن المسيح لم يبدأ رسالته إلا بعد قتل يحيىٰ وزكريا، ولو أنه حضر دعوة يحيىٰ وتعمّد علىٰ يديه في نهر الأردن، كما أن المسيح هو فقط الذي اختُص بكتاب سماوي هو الإنجيل، وتميّز بديانة مستقلة عن اليهودية، وأما زكريا ويحيىٰ فلم يكن لأحدهما كتاب

سماوي، وكانا علىٰ ملة موسىٰ، وقد ورد ذكرهم جميعًا في القرآن.

قال الفتىٰ : وماذا جاء في القرآن الكريم عنهم؟

قال الشيخ : لقد كان زكريا رئيسًا للكهنة في الهيكل بأورشليم «القدس» ثم كبُر سنه ولم تنجب له زوجته اليصابات خلفًا من بعده، إذ كانت زوجته عاقرًا. كما كانت أختها «حنه» زوجة عمران عاقرًا، ولكن حنه طلبت من الله أن يرزقها خلفًا فاستجاب الله لها وحملت فتوجهت إلىٰ الله. كما سجل القرآن ذلك المشهد الرقيق:

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1].

قال الفتىٰ : كأن «زكريا» يعتبر زوج خالة مريم أم المسيح؟

قال الشيخ : نعم فهو قريبها ولذلك كان أَوْلىٰ بمريم في التكفُل بها.

قال الفتىٰ : وكيف ذلك..؟

(١) سورة آل عمران: ٣٥-٣٦.

قال الشيخ : لقد مات «عمران» أبو مريم عقب ولادتها وحملتها أمها «حنه» بعد أن كبرت مريم وذهبت بها إلىٰ الهيكل لأنها سبق أن نذرت ما في بطنها في الهيكل، وكان بودها أن يكون ذكرًا ليخدم فيه، ولكنها لما ولدتها أنثىٰ قررت زوجة عمران أن تنفذ نذرها فذهبت بها وهي طفلة إلىٰ الهيكل وقدمتها للكهنة هناك، فتقدم زكريا ليكفلها لأنه أقرب إليها من باقي الكهنة، ولكنهم اعترضوا، فقرر الكهنة أن يقترعوا علىٰ ذلك وألقوا بأقلامهم في الماء أيهم يكفل مريم، فطفىٰ قلم زكريا، وبذلك تكفَّل هو بتربيتها في بيته وفي الهيكل.

قال الفتىٰ : ولماذا سموها «مريم»..؟

قال الشيخ : كان بنو إسرائيل يسمون أكثر بناتهم باسم «مريم» تيمنًا باسم «مريم» أخت النبي هارون والنبي موسىٰ. صاحب شريعة بني إسرائيل. وقد ذُكر عن مريم في القرآن آيات كلها تكريم:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

قال الفتىٰ : وكيف كانت خدمتها في الهيكل؟ وأين كانت تقيم..؟

قال الشيخ : إن الهيكل المقدس الذي بناه سيدنا سليمان يوجد به جناحان أحدهما يتعبّد فيه الرجال، والآخر تتعبذد فيه النساء، ويقوم الصبية علىٰ خدمة الرجال من الأحبار تبركًا، وكذلك الفتيات الصغيرات يخدمن في جناح النساء المتعبدات، وطبعًا كانت مريم تذهب إلىٰ بيت زكريا زوج خالتها وولي أمرها للمبيت، وتخدم في الهيكل بالنهار فقط، وأما أم مريم فكانت تعيش في قرية الناصرة في إحدىٰ القرىٰ بشمال فلسطين بعيدًا عن أورشليم.

وبذلك نشات مريم في جو كله تقوىٰ وصلاح وتعبُّد محفوظة من وساوس الشيطان، فقد استجاب الله لدعاء أمها بأن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم.

قال الفتىٰ : وما ذاك الرزق الذي كان يجده زكريا عند مريم؟

قال الشيخ : يقال إنها فاكهة، وربما تكون أشياء أخرىٰ مما تشتهيه مريم للأكل، تأتي به الملائكة تكريمًا لها وجزاء قنوتها وطهارتها. مما دفع زكريا أن يتوجه هو الآخر إلىٰ الله أن يرزقه خلفًا صالحًا متأثرًا بذلك الجو الملائكي المبارك الذي تعيش فيه مريم. إذ يقول تعالىٰ :

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي

وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[1].

قال الفتىٰ : أظن قد استجاب الله له وحقق دعاءه، لأن زكريا نبي، والله يُكرم أنبياءه وأولياءه.

قال الشيخ : نعم إذ قال له: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلام اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً *

قال زكريا : رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيّاً *

قال : قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً *

قال زكريا : رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً

قال : آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً *

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً[2].

قال الفتىٰ : وهل يجوز لزكريا النبي أن يعترض علىٰ قدرة الله في أن يرزقه ولدًا؟

قال الشيخ : إن زكريا لم يعترض علىٰ قدرة الله في أن يرزقه بولد، ولكنه كان يستفهم عن كيفية إنجاب ولد، فهل من زوجته

(١) سورية مريم: ٢-٦.

(٢) سورة مريم: ٧-١١.

اليصابات العاقر أو من امرأة أخرىٰ يتزوجها، ولذلك يقول الله في ذلك: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

قال الفتىٰ : ما الغرض من تلك الآية التي طلبها زكريا من ربه؟

قال الشيخ : لقد طلب زكريا من ربه أن يعرف الوسيلة التي يستيقن بها، فذكر الله له أن يصبح غير قادر علىٰ الكلام ثلاثة أيام، ويخاطب الناس بالإشارة فقط، وفعلًا مكث تلك الأيام لا يستطيع الكلام فيها، وأوحىٰ إلىٰ من معه أن يسبحوا الله شكرًا علىٰ استجابة دعوة زكريا وأنه سيرزق بخلف.

قال الفتىٰ : وماذا بعد أن تأكد زكريا من أن زوجته قد حملت وستلد له ابنًا اسمه «يحيىٰ»؟

قال الشيخ : بعد أن حملت زوجة زكريا بستة شهور. حدث الأمر الأكبر الخطير الذي سبق أن شرحته وهو أن (حملت) مريم بعيسىٰ بالطريقة التي أسهبنا فيها، ثم تمت ولادة يحيىٰ ونشأ صغيرًا علىٰ أعتاب المعبد وترعرع بين جنباته وتزود من العلوم والتعاليم الدينية والتوراة الشيء الكثير بحكم اتصاله بالكهنة مع والده.

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٩-٩٠.

وقال الله فيه: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا أيضًا عن ولادة عيسىٰ..؟

قال الشيخ : سأذكر لك بعد أن أنتهي من موضوع يحيىٰ، لأن زكريا بعد أن دعا ربه ليرزقه غلامًا ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ﴾[2].

قال الفتىٰ : وما معنىٰ ذلك..؟

قال الشيخ : معنىٰ أن يحيىٰ مصدقًا بكلمة من الله أي أنه مصدقًا بعيسىٰ ابن مريم، لأن عيسىٰ هو «كلمة الله» كما سبق أن قلنا. ومعنىٰ سيدًا أنه يكون عالمًا ومتبحرًا في العلوم الدينية، وحصورًا أي أنه لا يأتي النساء فلم يتزوج. وسبب ذلك أن زكريا اشتهىٰ أن يكون له ولد مثل البتول مريم.

قال الفتىٰ : وماذا عن يحيىٰ بعد ذلك حتىٰ قُتل..؟

قال الشيخ : لم يُذكر الشيء الكثير عن يحيىٰ إلا أنه نشأ نشأة صالحة كثير التعبُّد، غزير المعرفة بأحكام التوراة، كما قال الله

(١) سورة مريم: ١٢-١٥.
(٢) سورة آل عمران: ٣٩.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي صار عالمًا ربانيًّا مبكرًا فأخذ يرشد الناس ويعظهم لكثرة انحراف اليهود عن الشريعة الموسوية، وكان يقضي أوقاتًا طويلة في الجبال والصحراء فرارًا من المجتمع الفاسد لليهود في زمنه، ولما بلغ الثلاثين من عمره أخذ اليهود للتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم، ويعمدهم أي يغسلهم في نهر الأردن ليتوبوا عن خطاياهم. ومما يؤثر عنه أنه قال: «أنا صوت صارخ في البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة»[1].

كما يقال- أيضًا- إن المسيح قد اعتمد من يحيىٰ، وهو يسمىٰ عند المسيحيين «يوحنا المعمدان».

قال الفتىٰ : وهل معنىٰ التعميد، أي الاغتسال في نهر الأردن، يزيل الخطايا عن الإنسان..؟

قال الشيخ : إن هذا اعتقادهم، وهو مثل الوضوء عند المسلمين، والاغتسال من الجنابة. وكلها أفعال مصدرها الإيمان والاعتقاد، ولها معانٍ باطنية ليس هذا مقامها.

قال الفتىٰ : كأن يحيىٰ كان يقوم بدعوته لهداية الناس والمسيح موجود ويعرف ذلك، ولذلك يقولون بأن يحيىٰ هو باب المسيح؟

قال الشيخ : نعم، وسبق أن قلت إن يحيىٰ كان يكبُر المسيح بستة شهور فقط، فهو يقاربه في العمر، ثم حدث أن قُتل يحيىٰ بأمر من

(١) الإنجيل.

حاكم فلسطين يقال له «هيرودس» لأنه كان يريد أن يتزوج من بنت أخيه، ويُقال لها «سالومي بنت هيروديا» فعارض ذلك الزواج يحيىٰ بحجة أنه لا تجيزه الشريعة اليهودية، فتخلص الحاكم منه بقتله حتىٰ لا يرتفع صوت بمثل هذه المعارضة، وقيل إن ذلك بإيعاز من تلك الفتاة ليتم زواجها من عمها الحاكم اليهودي بتحريض من والدتها هيروديا. كما قيل أيضًا أن زكريا والد يحيىٰ قد قُتل في تلك الحادثة المروعة، ولذلك يُطلق علىٰ اليهود أنهم قتلة الأنبياء، وبدأ عيسىٰ رسالته بعد مقتل يحيىٰ مباشرةً.

قال الفتىٰ : هل أستطيع أن أعرف أسماء أنبياء بني إسرائيل..؟

قال الشيخ : أنبياء بني إسرائيل كثيرون، لكن المشهورين منهم هم: سيدنا يعقوب وهو إسرائيل نفسه، ثم بنوه الأسباط، ومنهم: يوسف ثم موسىٰ وهارون، ثم داود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ، وهؤلاء من نسل إسحق بن إبراهيم، كما أن سيدنا محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين جميعًا هو من سنل إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

قال الفتىٰ : نعود إلىٰ مريم وقد حملت بعيسىٰ كما فهمنا من قبل، وماذا حدث بعدئذٍ؟

قال الشيخ : من وجهة النظر المسيحية يقال إن يوسف النجار خطب العذراء مريم لنفسه من أمها لأنه أقرب الناس إليها وأَوْلىٰ

بها من غيره لأنها من نسل داود النبي، رغم كبر سنه الذي تجاوز الستين سنة، ومريم لم تبلغ بعد العشرين عامًا، حيث من عادة اليهود أن تعاشر الفتاة خطيبها فترة من الزمن للتعرف علىٰ أخلاقه وطباعه قبل أن يتم الزواج بينهما، وحدث أن حملت العذراء مريم في فترة الخطوبة هذه، ولما علم يوسف النجار بحملها المبارك تستر عليها راضيًا مختارًا لأنه كان رجلًا متدينًا وتقيًّا، إذ رأىٰ في المنام من يخبره بأن مريم الطاهرة العذراء حامل بالمسيح المنتظر من روح الله، فصدق بما رأىٰ وكرَّس نفسه لخدمة مريم وابنها تقربًا إلىٰ الله، لأنه كان مكتوبًا في التوراة أن المسيح المنتظر سيولد من عذراء، ومن وجهة النظر الإسلامية لم يذكر القرآن شيئًا عن يوسف النجار، وهو في وضعه هذا لم يشكل اعتراضًا أو مشكلة.

قال الفتىٰ : وكم كان عمر مريم عندما حملت بعيسىٰ، وماذا حدث في ولادته؟

قال الشيخ : لقد كانت مريم في السن التي تصلح فيه للحمل كأي امرأة، أي ما فوق السادسة عشر سنة، وربما كانت في العشرين من عمرها، حيث تكون قد كمل جسمها ونضج عقلها لتتحمل المسئولية وتتصرف بحكمة في هذه الظروف التي قُدِّرت عليها، حيث أنها مواقف حرجة وحساسة وتحتاج إلىٰ ضبط النفس ورجاحة العقل وثبات الجنان، والذي

ظهر أمامنا أنها كانت تواجه كل مواقفها العصيبة بمفردها دون أحد بجانبها، فلها الإكبار والتبجيل والتعظيم علىٰ تحملها تلك الشدائد وصبرها وتوكلها واستسلامها لقضاء الله وقدره فيها.

وإن كانت قد نفسَّت عن نفسها في بعض المواقف مثل الولادة فلها العذر وأكثر، لأنها فتاة طيبة مشرقة القلب، هي الطهر كله، والعفة كلها، واجهت امتحانًا قاسيًا في أعز ما تملكه المرأة وهي طهارتها فكيف تواجه الناس بحملها هذا، وماذا بعد أن تلد غلامها فهل يصدِّقها الناس بأنه من غير أب، فقد كانت هذه الأفكار تطوف بمخيلتها طوال حملها فكانت تؤرقها وتسهر ليلها، لولا أن ملائكة الرحمن كانت تطوف بها وتؤنسها وتسري عنها ذلك الهم:

﴿وَإِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا تقصد بأنها نفسَّت عن نفسها عند ولادة عيسىٰ؟

قال الشيخ : أقصد بعد أن حملت بعيسىٰ وقضت مدة الحمل العادية وحان ميعاد الوضع لها:

---

(١) سورة آل عمران: ٤٢-٤٣.

﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[1].

قال الفتىٰ : طبعًا كانت مريم في حالة العُسرة والألم التي تصاحب الولادة عادةً، وخاصةً في أول ولادة، فمن شدة الألم من جانب، ومن الأفكار العقلية وحيرتها في كيف تواجه الناس من جانب آخر بعد أن أصبح أمرًا واقعيًا، فلها العذر فيما قالت، لأن حالتها النفسية مضطربة.

قال الشيخ : حقًّا ما تقول، ولكن الذي طمأنها وأنزل السكينة علىٰ قلبها، وثبَّت لها فؤادها، وبدَّد عنها حيرتها هو عيسىٰ نفسه لحظة ولادته بهذه المعجزة:
﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[2].

قال الفتىٰ : أظن مريم قد هدأت بعد ذلك.

قال الشيخ : طبعًا انقشعت عن مريم غشاوة الأفكار التي أحزنتها بمجرد أن سمعت من عيسىٰ هذا الحديث، لأنها بجانب

(١) سورة مريم: ٢٢-٢٣.
(٢) سورة مريم: ٢٤-٢٦.

فرحتها به من حيث عاطفة الأمومة فقد تيقنت أيضًا وتحققت مما أخبرها به جبريل عن عيسىٰ انه يكلِّم الناس في المهد، فأول حديث له كان لأمه، فلم تفزع لسماعه بل سعدت بذلك ليؤنسها في وحدتها، كما أنه أشار إليها أن تهز النخلة بمجرد أن تمسكها أخذًا بالأسباب فتسقط عليها تمرًا تأكل منه، لأن الحامل عقب أن توضع مولودها تشعر بجوع شديد وتشتهي الأكل، وما أجمل الرطب ففيه حلاوة وسهولة في الأكل، ويُسر في الهضم. وأرشدها بحكمة بالغة أن تتخلص من مواقف التساؤل من الناس بأنها صائمة عن الكلام في ذلك اليوم الذي أتعبها الوضع فيه.

قال الفتىٰ : وأين كانت ولادة عيسىٰ؟

قال الشيخ : في قرية «بيت لحم» بجوار أورشليم «القدس» وهي علىٰ بُعد بضع كيلو مترات منها، ويقول المسيحيون أنها ذهبت إلىٰ «بيت لحم» في صحبة يوسف النجارإلىٰ تلك القرية بسبب صدور أمر من حاكم فلسطين بإجراء تعداد للسكان، فذهب يوسف ومريم إلىٰ «بيت لحم» ليقيدا اسميهما هناك، لأن تلك القرية كانت مخصصة لنسل داود. وعندما كانا في تلك القرية جاءها المخاض فولدت عيسىٰ علىٰ غير استعداد فلفته في ثوبتها وأرقدته في مزود للغنم هناك، وبعد أن مكثت مريم ويوسف في بيت لحم

بعض الوقت حملت عيسىٰ وذهبت به إلىٰ قرية «الناصرة» عند أمها وأهلها.

قال الفتىٰ : أظن أمها وأهلها قد فرحوا بها لأنها جاءت إليهم بالمسيح المنتظر لهم؟

قال الشيخ : لا، لأنهم لم يعرفوا حققة أمرها.
﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا* يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا* وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا* وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[(١)].

قال الفتىٰ : لماذا قالوا يا أخت هارون، مع إنها ليس لها إخوة؟

قال الشيخ : سبق أن قلت إن اسم مريم يُكنىٰ به عن مريم أخت النبي هارون والنبي موسىٰ. كمن يقال له يا أبا عوف لمن يسمىٰ عبد الرحمن تشبهًا بعبد الرحمن بن عوف، وكذلك يقال يا أبا علي لـ«حسن».

(١) سورة مريم: ٢٧-٣٣.

قال الفتىٰ : كأن عيسىٰ تكلَّم في المهد مرتين فقط، مع أمه أولًا، ثم مع أهل أمه ثانيةً.

قال الشيخ : هذا هو المأثور عنه في القرآن فقط، ويجوز أكثر من ذلك.

قال الفتىٰ : أظن نطق عيسىٰ في المهد أولىٰ معجزاته.

قال الشيخ : نعم هي أولىٰ معجزاته الشخصية، كما أن كلامه ليس باللغو أو حديث طفل، بل يدل كلامه علىٰ معانٍ وحكمة بالغة، ودستور حياته المستقبلة، وما ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحيٌّ يوحىٰ.

قال الفتىٰ : أظن مثل هذا النبأ قد سرىٰ بين الناس وعرفوا أن المسيح المنتظر قد وُلد.

قال الشيخ : طبعًا قد تناقلته الألسن بين اليهود، ولكن بين مصدِّق ومكذِّب، لأن طبيعة اليهود أن يقابلوا الأمور بجحود ونكران دون اكتراث، فعميت عنه بصائرهم، واستغشوا ثيابهم، وكأن بآذانهم وقرا.

قال الفتىٰ : هل صحيح أن المسيح قد حضر إلىٰ مصر هو وأمه مريم وهو طفل؟

قال الشيخ : تقول الكتب المسيحية ذلك بأن أمه قد حملته وهربت به إلىٰ مصر وهو طفل صغير، وبصحبتها يوسف النجار، خوفًا من القتل، لأن حاكم فلسطين انبئ بأنه وُلد طفل صغير في بيت لحم سيكون ملكًا لليهود، فأمر بقتل جميع

أطفال بيت لحم في تلك السنة التي وُلد فيها المسيح. وغذا كان هذا صحيحًا فيعتبر ذلك شرفًا لأرض مصر أن يطأها المسيح وتظل مباركة إلىٰ الأبد، وقيل إنه مكث حتىٰ الثالثة من عمره ثم عاد إلىٰ فلسطين هو وأمه ويوسف. وبقي يوسف خادمًا ومعينًا لمريم وعيسىٰ حتىٰ مات، وعيسىٰ في حوالي السابعة عشر من عمره المجيد المبارك.

قال الفتىٰ : بهذه المناسبة هل تشرَّفت أرض مصر بأحدٍ من الأنبياء؟

قال الشيخ : نعم، فالثابت في الكتب السماوية أو كتب التاريخ بالنسبة للأنبياء الذين أتوا إلىٰ مصر أو عاشوا فيها هم:

أولًا - سيدنا إبراهيم الخليل لمَّا حضر إلىٰ أرض مصر ومعه زوجته سارة فرارًا من الجدب الذي حدث في أرض الشام ليجد المرعىٰ لماشيته في أرض مصر، ومكث بعض السنين ثم رجع إلىٰ الشام.

ثانيًا - سيدنا يوسف الصديق الذي تربىٰ في مصر وعاش بها طول حياته، وكذلك أحضر أباه يعقوب النبي وإخوته الأسباط.

ثالثًا - سيدنا موسىٰ الذي وُلد في مصر وعاش بها أغلب سني حياته، ثم خرج من مصر مع بني إسرائيل إلىٰ أرض سيناء وبقي هناك حتىٰ مات.

رابعًا - وكذلك سيدنا هارون أخو موسىٰ فكان ملازمًا لسيدنا موسىٰ في مصر وسيناء.

خامسًا- حضور سيدنا عيسىٰ إلىٰ مصر وهو طفل صغير، وإقامته بها ثلاث سنوات.

سادسًا- أحفاد النبي محمد ﷺ وهم: سيدنا الحسين وأخته السيدة زينب، وغيرهم من آل بيت النبي الكريم رضي الله عنهم أجمعين.

قال الفتىٰ : نعود إلىٰ السيد المسيح عندما بدأ دعوته بعد قتل (يحيىٰ) فماذا فعل؟

قال الشيخ : لقد بدأت نبوة المسيح وهو في الثلاثين من عمره بعد قتل يحيىٰ مباشرةً، وتقول الكتب المسيحية «إنه نزل عليه الملاك جبريل وقدم له كتابًا كأنه مرآة براقة عرف به ما فعل الله، وما قال الله، وما يريد الله، حتىٰ إن كل شيء كان عريانًا ومكشوفًا له، وأصبح يعرف كل نبي، وكل نبوة، وكل ما يقوله قد جاء في ذلك الكتاب»[١]. وبذلك علم المسيح أنه أصبح نبيًّا مرسلًا إلىٰ بني إسرائيل، ومنذ ذلك التاريخ بدأ ينشر دعوته بالوعظ والنصائح ومجادلة الكهنة والفريسيين.

قال الفتىٰ : هل هذا الكتاب الذي جاء به جبريل للسيد المسيد عند بدء رسالته مثل الكتاب الذي جاء به جبريل للنبي محمد ﷺ عند بدء نبوته أيضًا؟

(١) الإنجيل.

قال الشيخ : لقد كان لكل منهما كتاب خاص برسالته، وطبعًا كتاب عيسىٰ هو الإنجيل، وكتاب محمد هو القرآن.

قال الفتىٰ : وماذا فعل عيسىٰ مع بني إسرائيل؟

قال الشيخ : لقد أرسل الله عيسىٰ إلىٰ بني إسرائيل لأنهم ضلّوا كثيرًا وحرَّفوا التوراة، واستغل الكهنة والأحبار شعب بني إسرائيل وأرهقوهم في ابتذاذ الأموال بالنذور والعشور، وغيَّروا في الشريعة التي جاء بها موسىٰ ليحتفظ الكهنة والفريسيون بمراكزهم الدينية المترفة، وسلطاتهم المقدسة التي لا يجادلهم فيها أحد، كما قد ظهرت بين اليهود أيضًا طائفة تنكر البعث والحساب.

وفي هذا الجو الصاخب بدأ عيسىٰ رسالته ليبيِّن للناس مساوئ الكهنة وأخطائهم في تطبيق الشريعة الموسوية، وانحرافاتهم للحصول علىٰ الأموال من الشعب بوسائل غير مشروعة. وأخذ يشرح طريق الخلاص لعبادة الله الواحد علىٰ حق وإيمان متمسكًا بما جاء بالتوراة، مبينًا لهم طريق الخلاص بتنقية عقيدتهم مما ران علىٰ قلوبهم من زيف الكهنة وفساد الفريسيين.

وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ

هُدًىٰ وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًىٰ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وهل آمن اليهود بما قاله لهم عيسىٰ، واتبعوه فيما وعظهم به؟

قال الشيخ : إن عيسىٰ بحملاته الشديدة علىٰ رجال الدين جعلهم يناصبونه العداء، منكرين عليه آراءه، مفندين له مواعظه، محذرين الناس من اتباعه أو تصديقه، فتوجه عيسىٰ إلىٰ العامة من الناس مبينًا لهم أنه رسول الله إليهم، ومؤيد منه بالمعجزات الخارقة:

﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[2].

(١) سورة المائدة: ٤٦.

(٢) سورة آل عمران: ٤٩-٥١.

قال الفتىٰ : وهل قام عيسىٰ بإجراء هذه المعجزات كلها لبني إسرائيل؟

قال الشيخ : نعم، ومع هذا آمنت به فئة قليلة من المستضعفين والفقراء، وممَّن شفي من مرضاهم، أو ممَّن ساعدهم علىٰ التخلص من خطاياهم.

قال الفتىٰ : وهل فعلًا أحيا عيسىٰ الموتىٰ وأبرأ الأكمه؟

قال الشيخ : نعم قد أحيا ميتًا من أصدقائه بعد أن دفنوه في قبره ومضىٰ عليه ثلاثة أيام، وكذلك أحيا صبيًّا كان أهله ذاهبين به لدفنه، وكذلك أبرأ الأكمه وهو الذي يولد أعمىٰ، فبمجرد أن لمسه المسيح أبصر بإذن الله.

قال الفتىٰ : وهل هناك معجزات أخرىٰ لعيسىٰ؟

قال الشيخ : كان يمشي علىٰ الماء، ويأمر الرياح العاصفة أن تهدأ فتسكن، ثم هناك معجزة أخرىٰ كما في قوله تعالىٰ:
﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ* قَالَ اللهُ إِنِّي

مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنْ الْعَالَمِينَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا كان علىٰ هذه المائدة؟

قال الشيخ : يقال إنه حوت وبعض الخبز، ولو رأيت أمامك لوجدت الحوت في القسم.

قال الفتىٰ : نعم إني أرىٰ فعلًا حوتًا في هذا القسم.

ولقد كانت معجزات عيسىٰ بحق خارقة وصارخة.

ومن العجيب ألا يتبعه إلا قليل من اليهود.

قال الشيخ : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[2].

بهذا أنكر اليهود، وعلىٰ رأسهم الكهنة والأحبار، هذه المعجزات علىٰ عيسىٰ ورموه بالسحر وكفروه، وادعوا علىٰ أمه مريم بهتانًا عظيمًا، وأخذوا يشيعون عنه مخالفته للتوراة، وأنه يجيز العمل في يوم السبت الذي حرّمت الشريعة العمل فيه، وأنه يدعي أنه ابن الله. وأنه يثير الناس ضد الحكم الروماني المحتل لأرض فلسطين.

لهذا لم تلق دعوة المسيح في حياته انتشارًا أو قبولًا إلا في قلوب قلّة من الناس، أكثرهم من الصيادين والرعاة والعمال. ومكث عيسىٰ في رسالته ثلاث سنوات فقط.

---

(١) سورة المائدة: ١١٢-١١٥.

(٢) سورة الصف: ٦.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(١).

قال الفتىٰ : وهل أتباع المسيح في عهده أَلَّهوه أو قالوا عنه أنه ابن الله؟

قال الشيخ : لقد كان المجتمع الذي عاش فيه عيسىٰ- كما أعتقد- ثلاث فئات:

الأولىٰ : فئة الحواريين وعددهم اثني عشر، وهم تلامذته المخلصون الذين آمنوا به وبدعوته، وأنه رسول الله إليهم.

الثانية : فئة من الأتباع للمسيح قد تغالوا في حبسه وبهرتهم معجزاته فاعتبروه ابن الله أو الله، وكانوا يسجدون له في حياته، وبعد رفعه أَلَّهوه بأنه الله تجسّد في مريم، كما يقولون إن المسيح روح الله. ثم نادوا بنظرية التثليث.

الثالثة : فئة الكهنة وغالبية بني إسرائيل المنكرين علىٰ المسيح رسالته، والذي اتهموه بالسحر في كل معجزاته حسدًا منهم ونكرانًا للحفاظ علىٰ مراكزهم الدينية. ولما زاد حنقهم عليه تآمروا علىٰ التخلص منه بقتله وصلبه.

(١) سورة المائدة: ٦٦.

قال الفتىٰ : لقد كانت حال عيسىٰ في الواقع تدعو إلىٰ الشفقة، وقد بدأ بدعوته وهو شاب في الثلاثين من عمره ليواجه أعداء له من الهنة وشيوخ بني إسرائيل، وقد تحمَّل في سني دعوته الثلاث جهودًا مضنية شأن جميع الرسل في تحمل المشاق والصعاب والآلام في سبيل رسالاتهم، حبذا لو ترك اليهود سيدنا عيسىٰ بضع سنوات أخرىٰ يتمم فيها رساله لامتلأت بفضله الدنيا نورًا وهدىٰ ولعمّت البركة والسلام ربوع الأرض قاطبة.

قال الشيخ : حبذا ولدي، ولكن لله الحكمة البالغة، وبالنسبة لهذه الأسباب التي يعلمها الله عن عيسىٰ وحيرته بين أعدائه من اليهود، وعلىٰ رأسهم الكهنة ذوي السلطان الديني الكبير، وبين أتباع له يسجدون له ويعظمونه علىٰ أنه ابن الله، وبين حوارييه الصادقين المصدقين برسالته.. يقول الله:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ

يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

قال الفتىٰ : وماذا تشير هذه الآيات من معنىٰ؟

قال الشيخ : تشير إلىٰ أن الله قد حسم هذا الوضع الذي يتعرض فيه عيسىٰ تلك الآيام للتآمر من اليهود بقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾[2] وأوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ عن طريق جبريل بأنه قد أنهىٰ أيام رسالته الحالية علىٰ الأرض إلىٰ هذا الحد، وطمأنه بأنه سيتوفاه ويرفعه إلىٰ السماء إنقاذًا له من مكر أعدائه كهنة اليهود الذين تآمروا علىٰ قتله وصلبه، كما أن الله قد بشّره أن الذين اتبعوه وآمنوا برسالته وتعاليمه السمحة من الحواريين والمؤمنين سينصرهم الله علىٰ أعدائهم من اليهود، وأما الذين كفروا به من اليهود فسوف يعذبهم الله العذاب الأكبر في الدنيا والآخرة، بهذا اطمأن عيسىٰ علىٰ نفسه وعلىٰ أتباعه المخلصين وعرف ما سيحيق بأعدائه من سوء المصير.

قال الفتىٰ : هل معنىٰ كلمة «متوفيك» يقصد بها الموت؟

قال الشيخ : إن كلمة «متوفيك» هنا تفيد معنىٰ النوم، أي يغشاه النعاس، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ

---

(١) سورة آل عمران: ٥٢-٥٥.

(٢) سورة المائدة: ١١٠.

مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّىٰ﴾[1]، وكذلك مثل قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾[2].

قال الفتىٰ : وما الحكمة في أن يغشاه النُعاس؟

قال الشيخ : الحكمة في أن يغشىٰ عيسىٰ النُعاس ثم يرفعه الله من الأرض بجسمه وروحه إلىٰ السماء حتىٰ لا يشعر بحالة الصعود وما فيها من ضيق للتنفس واختلاف الأجواء والحالة النفسية التي يتعرض لها وهو نفسه صاعدًا من الأرض، وينظر بعينيه فيجد أنه مندفع كالسهم بين الكواكب والشهب، وخاصةً أن الفضاء السماوي ظلام، وما دام في حالة نعاس فهو لا يشعر بشيء.

قال الفتىٰ : أريد شرحًا لما حدث لعيسىٰ قبيل الصلب والرفع.

قال الشيخ : لليهود عيد الفصح يحتفلون به كل عام ويحج فيه اليهود إلىٰ بيت المقدس يقدمون الذبائح والنذور والقرابين في الهيكل المقدس، وجاء عيسىٰ وحواريوه ليقدموا الهدي من الذبائح في الهيكل كالمعتاد، فلما دخل عيسىٰ فناء الهيكل وجده يموج بالحجاج من القرىٰ والأقاليم

---

(١) سورة الأنعام: ٦٠.

(٢) سورة الزمر: ٤٢.

المجاورة، وكذلك وجد تجار الحمام والمواشي والصيارف يجلسون في داخل سور المعبد يمارسون التجارة وبيع الهدي وتغيير النقود ليصيبوا من وراء ذلك تجارة رابحة، وذلك كله علىٰ مسمع ومرأىٰ من الكهنة والفريسيين، فنهرهم عيسىٰ وأخرجهم من فناء المعبد لأن الهيكل ليس مسرحًا للتجارة ولكنه للتعبُّد والصلاة، ثم قام في الناس واعظًا يشرح للناس نصوصًا من التوراة ويحصل لهم بعض ما حرّم عليهم في التوراة بعد أن يسوق الحجج المقنعة، ثم أخذ يهاجم الكهنة والفريسيين بقوله:

أيها المراءون طلتم كلام الله وأحببتم سننكم.

تقولون لأبناء الفقراء انذروا للهيكل نذورًا فينذرون القليل. الذي يجب أن ينفقوه في عول آبائهم.

أيها الكذابون أيقبل الله هذه النقود.

يا أولاد الأفاعي كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة.

«علىٰ كرسي موسىٰ جلس الكتبة والفريسيون فاحفظوا كل ما يقولون لكم وافعلوه، ولكن لا تعملوا حسب ما يفعلون فهم يقولون ولا يفعلون، يعملون كل أعمالهم لوجه الناسن يعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم، وييل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. ويل لكم أيها القادة

العميان الذين يحاسبون علىٰ البعوضة ويبتلعون الجمل»[1].

بهذه الكلمات القاسية كان يخاطب عيسىٰ الكهنة والفريسيين والكتبة في المعبد، فامتلأت قلوب الكهنة حقدًا وغضبًا وأحسوا أن هيبتهم قد ضاعت، وأن مركزهم أخذ يتزعزع بين جموع الحجاج والشعب اليهودي، فثاروا علىٰ عيسىٰ في المعبد، وحرضوا بعض الكتبة ليجادلوه ويكذبوه ويحذروا الناس من الإصغاء إليه، وأن معجزاته التي يدعيها من عمل السحر الذي يتقنه، ولكن الجماهير كانت مصغية إلىٰ عيسىٰ معجبة بأقواله الحكيمة وعطاته الدينية ودعوته إلىٰ التمسك بالتوراة الحقيقية، والدعوة إلىٰ المحبة والسلام. وكان ذلك اليوم هو الخميس قبيل عيد الفصح والذي يكون في يوم الأحد عادةً.

وفي تلك الليلة اجتمع الكهنة وشيوخ اليهود ورؤساء الديانة بالمعبد من الفريسيين والكتبة وتناقشوا في أمر عيسىٰ في جو صاخب معبأ بالحقد والكراهية والثورة العارمة علىٰ عيسىٰ، وفي هذا الاجتماع قرروا أن يتخلصوا منه بقتله وصلبه سريعًا، وأن يقبضوا عليه في تلك الليلة وينفذوا فيه حكمهم في اليوم التالي وهو يوم الجمعة قبل يوم العيد الذي هو يوم الأحد، وفي تلك الليلة كان عيسىٰ

(١) إنجيل متىٰ، إصحاح ١٢، ١٥، ٢٣.

وحواريه يقيمون في حديقة لأحد أتباعه بخارج أورشليم، وأنزل الله جبريل إلىٰ عيسىٰ يخبره بمكر الكهنة ضده، وأنهم قرروا فيه حكمهم بالقتل والصلب، ولكن جبريل طمأنه بمناسبة انتهاء أيامه علىٰ الأرض ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]. فحزن عيسىٰ وأخذ يعظ الحواريين بقوله: «إن ارتفعت علىٰ الأرض أجذب إليّ الجميع»[2]، «وكلكم تشكون في هذه الليلة»[3]. ثم تناولوا عشاءهم فقال لهم: «اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضي»[4]. وبعد العشاء قام المسيح نفسه وغسل للحواريين أيديهم وأرجلهم وقال لهم: «أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم علىٰ الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة. فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظم بعضكم علىٰ بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسي لكم»[5].

(١) سورة آل عمران: ٥٥.
(٢) إنجيل متىٰ، إصحاح ٢٦.
(٣) إنجيل متىٰ، إصحاح ٢٦.
(٤) إنجيل لوقا، إصحاح ٢٢.
(٥) إنجيل يوحنا، إصحاح ١٦.

ثم قال لهم: «أنا ذاهب ثم أعود إليكم فلو كنتم تحبونني كنتم تفرحون لأني ذاهب إلىٰ الله، والله أعظم مني»[1].

أما الآن فإني ماضٍ إلىٰ الذي أرسلني، ولا يسألني أحد منكم أين تمضي، ملأ الحزن قلوبكم لأني قلت لكم هذا، ولكن أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق»[2].

«بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضًا ترونني. الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. ثم أنتم ستفرحون، سيتحول حزنكم إلىٰ فرح»[3].

ثم قال: هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون كل واحد إلىٰ خاصته وتتركوني وحدي وأنا لست وحدي لأن الله معي سيكون لكم ضيق في العالم ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم[4].

ثم قال: يا رب قد أتت الساعة. كتبت عليّ أن أشرب هذه الكأس فلتكن مشيئتك[5].

وعندئذٍ وصل جند الرومان وخدمة الهيكل والتبة ليقبضوا علىٰ المسيح، فأمر حواريه أن يتفرّقوا لأنه يذهب الراعي وتتفرّق الغنم.

---

(١) إنجيل يوحنا، إصحاح ١٦.

(٢) إنجيل يوحنا، إصحاح ١٦.

(٣) إنجيل يوحنا، إصحاح ١٦.

(٤) إنجيل يوحنا، إصحاح ١٦.

(٥) إنجيل متىٰ، إصحاح ٢٦، ٢٧.

فتقدم المسيح إليهم وقال: من تطلبون. فقالوا: نطلب عيسىٰ الناصري. فقال لهم: هو أنا. فقبضوا عليه وساروا به إلىٰ مجلس الكهنة المجتمع وأجروا له محاكمة صورية مزيفة لم يُعرهم فيها اهتمامًا لأنه كان يعلم بما سيحدث له، بل وكان مشغولًا عنهم بفرحة لقاء وجه ربه الكريم، وفي الصباح أرسلوا إلىٰ الحاكم الروماني (بيلاطس) بمحضر جلستهم وما قضوه فيه بالقتل صلبًا ساردين أسبابًا مختلقة كاذبة، فلم يقتنع الحاكم الروماني وأحس فيها الافتراء علىٰ عيسىٰ والتعصب المرير ضده، فقال لهم «إني بريء من دم هذا البار»[1] خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم، وسلمهم المسيح. فقالوا: لقد قررنا قتله وصلبه ودمه علينا وعلىٰ أولادنا من بعدنا[2] لأنه يستحق القتل حسب ناموسنا.

عندئذٍ أخذوه ليُقتل ويُصلب في مكان خارج المدينة «أورشليم» يقال له «جلجثا» علىٰ قمة تل مرتفع، وكان الوقت عصرًا، وشاهدت أمه مريم باكية حزينة حادثة الصلب، وحانت ساعة التنفيذ، وإذا بريح عاصف يهب فجأة ويسود الجو ظلام ورعد وغبار يملأ الكون يجعل الرؤية متعذرة، وتلك ساعة الخلاص لعيسىٰ- فأنزل الله

(١) إنجيل متىٰ، إصحاح ٢٦، ٢٧.
(٢) إنجيل متىٰ، إصحاح ٢٦، ٢٧.

عليه سِنَة من النوم، ورفعه جبريل علىٰ جناحه بجسمه إلىٰ السماء، ولم يشعر عيسىٰ بشيء إلا وهو في المكان الذي قدّره الله له في إحدىٰ السموات يحيا فيها حياة شبيهة بحياة الملائكة بعد أن نزع الله منه خاصية الأكل والشرب.

ويقال إن هذا الجو الصاخب المتلبد بالرمال والظلام قد ظل ثلاث ساعات لا يستطيع أحد أن يتبيَّن جاره، وفي تلك الفترة من الزمن رُفع عيسىٰ عليه السلام إلىٰ السماء بجسمه وروحه، ولم يره أحد في صعوده إلىٰ السماء بسبب الظلام الذي ساد تلك الزوبعة الرملية، ولما تكشف الجو وجدوا شبيهًا لعيسىٰ بينهم يرقد علىٰ الصليب الملقىٰ علىٰ الأرض فدقوا المسامير في يديه ورجليه، والحقيقة أنهم ما دقوا مساميرهم إلا في الخشب وما كان عيسىٰ الذي أمامهم إلا شبيهًا متمثلًا أمامهم من روحه، وأقاموا الصليب غرسًا في الأرض، ورأىٰ الناس علىٰ بُعد عيسىٰ المشبه لهم علىٰ الصليب صورة مصلوبة أمام أعينهم، فتراءىٰ لهم أنه المسيح، والحق أنه عيسىٰ الشبيه المتمثل لهم بقوة روح عيسىٰ، وأما عيسىٰ رسول الله ابن مريم فكان في السماء في ذلك الوقت مع الصديقين والشهداء والأنبياء المرسلين وحسن أولئك رفيقًا. ولقد شاهد حادثة الصلب هذه السيدة «مريم» أمه وبعض أتباع المسيح علىٰ بُعد كبير ورأوا ما حل بالمسيح المشبه فاعتقدوا أن الصلب والقتل حصل علىٰ عيسىٰ رسول الله ولهم العذر

لأنه لا يمكن أن يتصوروا غير ذلك، وقد ظل اعتقادهم هذا يقينًا عندهم حتىٰ جاء الإسلام بعد ستة قرون وبيَّن حقيقة الأمر في موضوع الصلب بأنه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾(١).

قال الفتىٰ : هذا تفسير معقول لمشكلة الصلب. فهل هذا هو رأي الإسلام عامةً فيه؟

قال الشيخ : هذا مبلغ علمي فيه ومدىٰ اجتهادي في فهم الآية القرآنية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(٢).

قال الفتىٰ : يقال إنه بعد دفن جثمان المسيح المصلوب في القبر ذهبوا بعد ثلاثة أيام فوجدوا القبر فارغًا، وأنه قام من بين الأموات إلىٰ السماء؟

قال الشيخ : إنهم لم يدفنوا شيئًا، وطبعًا لم يكن له وجود مادي في القبر. لأن الذي كان علىٰ الصليب صورة غير مادية تشبه المسيح فقط مثل ما نراه في السينما اليوم.

---

(١) سورة النساء: ١٥٧.

(٢) سورة النساء: ١٥٧-١٥٨.

وكونهم وجدوا القبر خاليًّا فهذه حقيقة لأن المسيح كان في السماء. قبيل إجراء الصلب، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ (١). فلم يكن أحد بجوار القبر ورآه يخرج من القبر ويصعد إلىٰ السماء، ولكنها استنتاجات مشوبة بعواطف الحب والتقديس لعيسىٰ من مريديه وأتباعه.

قال الفتىٰ : إن تفسيرك يا سيدي لما حدث أرحم وأقرب للمنطق، وأكرم لعيسىٰ عند الله من غيره.

قال الشيخ : هذا هو رأينا في هذا الموضوع نعرضه ليعلم الناس مبلغ تعظيمنا وتكريمنا وتنزيهنا لعيسىٰ ابن مريم رسول الله الذي رُفع إلىٰ السماء بجسمه وروحه معًا، وقد وقع الصلب علىٰ شبيه له في صورة عيسىٰ متشكل بقوة روحه القادرة علىٰ التطور بقدرة الله إكبارًا وإعزازًا لعيسىٰ نفسه أن يُصلب ويُقتل علىٰ يد فئة كافرة من أعدائه اليهود عميت أبصارهم وأكل الحقد قلوبهم فكذبوه ونكروه واتهموه بالسحر في معجزاته لأنه كشف للناس زيف إيمان الكهنة والكتبة وانحرافهم عن مبادئ التوراة وعن الفضائل الإنسانية، وحرفوا التوراة وابتدعوا طقوسًا دينية لتكون مصدر رزق لهم ليعيشوا في ثراء دائم بينما الناس في فقر

(١) سورة النساء: ١٥٧.

شديد فباءوا بغضب من الله وتآمروا علىٰ قتل المسيح ظلمًا، فأكرمه الله ورفعه إليه دون أن يمسه أحد بأذىٰ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1].

قال الفتىٰ : يقال إن اليهود وجند الرومان قد أهانوه بالضرب والأذىٰ والجلد والبصق في وجهه حتىٰ سال الدم منه، فهل هذا صحيح؟

قال الشيخ : من ذا الذي يستطيع أن يمد يده علىٰ المسيح بأذىٰ أو يجرؤ أن يبصق في وجهه المشرق بنور الله، فلا يمكن أن يحدث ذلك، فلو عزم أحد بذلك ليبست يده وجف حلقه في الحال، إن المسيح حبيب الرحمن، خلقه بحالة مغايرة لخلق الناس، وأيّده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام في كل خطواته وحياته، لقد اصطفاه الله هو وأمه مريم علىٰ العالمين بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾[2]، ﴿وَإِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[3]. هذا هو التفضيل والتكريم والاصطفاء الذي خصَّ الله به آل عمران، والمقصود بذلك المسيح وأمه، فهل يتمشىٰ هذا التفضيل مع الإهانة المقولة، أم أن

(١) سورة النساء: ١٥٧.
(٢) سورة آل عمران: ٣٣.
(٣) سورة آل عمران: ٤٢.

الأمر قد يعتبر مغالاة، والحقيقة التي لا مراء فيها أن الكهنة كانت ترتعد فرائصهم عند محاكمته خشية أن تحدث إحدىٰ المعجزات من عيسىٰ فيخرّ السقف عليهم أ تنشق الأرض فتبتلعهم. ولكن عيسىٰ لم يشأ أن يحدث شيئًا لأنه كان في شغل شاغل عنهم بما سمع وعلم من جبريل.

قال الفتىٰ : وماذا عن أم المسيح مريم بعده؟

قال الشيخ : لم يذكر التاريخ عنها شيئًا سوىٰ أنها عاشت بعد المسيح ست سنوات ثم توفيت إلىٰ رحمة الله حزينة ثكلىٰ علىٰ ابنها عيسىٰ، بعد أن بلغت من العمر ست وخمسين عامًا تقريبًا قضتها طاهرة تقية في التعبد والصلاة كما وصفها القرآن بقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ﴾[1]، ويكرمها الله أيضًا بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[2]، ولهذا فإنها في مقام الصديقين في الجنة مثل سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ.

قال الفتىٰ : يقال إن أحد الحواريين للمسيح واسمه «يهوذا» هو الذي ذهب إلىٰ مجلس كهنة اليهود ليرشدهم عن المسيح

(١) سورة التحريم: ١٢.
(٢) سورة المائدة: ٧٥.

ومكانه ليقبضوا عليه في نظير ثلاثين وزنة من الفضة، وذهب مع الكهنة وجند الرومان واتفق معهم علىٰ أن الذي يقابله هو عيسىٰ ليُقبض عليه.

قال الشيخ : إني أنزه الحواريين لعيسىٰ أن يقوم أحدهم بمثل هذا العمل الدنيء. إن هذا فعل العدو وليس فعل الصديق، فلا يفكر في مثل ذلك إلا رجل لم تكتحل عيناه برؤية المسيح وحبه، فغن نور النبوة المنبعث من عيسىٰ ق جعل نفوس الحواريين مرآة صافية كلها خير ومحبة وسلام شأن كل أتباع الأنبياء، وما استحق أن يكون من الحواريين من يخطر علىٰ ذهنه شاردة تسوء المسيح، فالحواريون كانوا علىٰ تقوىٰ من الله وفضل مثل صحابة رسول الله محمد، فعندما تعرَّض محمد ﷺ للخطر وقرر أعطاؤه من قريش قتله قدم علي بن أبي طالب نفسه طيعًا مختارًا ليكون الفداء لمحمد ونام في فراشه وهو يعلم أن قتله أمرًا محققًا، هذا هو موقف صحابة محمد، وهذا ما نعتقده في الحواريين لعيسىٰ سواء بسواء ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[1].

(١) سورة الفتح: ٢٩.

قال الفتىٰ : إني أفهم من هذه الآراء أنك يا سيدي تُنزه عيسىٰ عليه السلام من الصلب، وأنه رُفع إلىٰ السماء بجسمه وروحه، وأن الصلب وقع علىٰ صورة شبيه له، كما تنزهه عن الإيذاء والإهانة، وأيضًا تُنزه يهوذا أحد الحواريين من الوشاية بعيسىٰ عند كهنة اليهود.

قال الشيخ : نعم هذا ما أراه يا بني، وأزيد عليه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[1].

قال الفتىٰ : صدق الله العظيم. ﴿ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[2]، وكما قال المسيح ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[3].

وكذلك قال الله تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[4].

* * *

(١) سورة الإخلاص: ١-٤.
(٢) سورة مريم: ٣٤.
(٣) سورة مريم: ٣٣.
(٤) سورة المائدة: ٨٢.

القسم (١٣)

عهد أهل الكهف

قال الفتىٰ : إني أرىٰ في هذا القسم كلبًا فقط، فما قصته؟

قال الشيخ : إنه كلب أهل الكهف والرقيم، ومعنىٰ الرقيم هو لوح رُقمت فيه أسماؤهم، وهم فتية آمنوا بالمسيح في أوائل التبشير بالديانة المسيحية، وفي عصر الاضطهاد المرير للمسيحيين إبان حكم «دقلديانوسي قيصر الإمبراطورية الرومانية التي كان يمتد سلطانها علىٰ آسيا الصغرىٰ والشام، وكان هؤلاء الفتية من جزيرة «إفسوس» التابعة لآسيا الصغرىٰ، واعتنقوا المسيحية عن إيمان صادق وتقوىٰ حقيقية فأنار الله بصيرتهم وهداهم إلىٰ طريق النجاة من المذابح البشرية التي استشهد فيها كثير من إخوانهم في العقيدة. واتفق هؤلاء الفتية علىٰ أن يخرجوا من المدينة فرارًا بدينهم ليختبئوا في كهف بالجبل فتبعهم كلبهم هذا في سيرهم حتىٰ وصلوا إلىٰ كهف عميق في الجبل بعيدًا عن الأنظار واختفوا داخله وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد أي بباب الكهف. ولما نفذ زادهم الذي حملوه معهم إلىٰ الكهف توجهوا إلىٰ الله بقلب سليم أن يتداركهم برحمته الواسعة وينقذهم مما هم فيه من ضيق ويعمي الله أبصار جند القيصر عنهم حتىٰ لا يكون مصيرهم كإخوانهم الشنق

بعد التعذيب وتعلق أجسامهم في الميادين طعامًا للحدأ والغربان.

فأنزل الله السكينة علىٰ قلوبهم واستجاب لهم ربهم في ساعة العُسرة هذه فتوفاهم في رقدتهم عند النوم وراحوا في سبات عميق، وكلبهم معهم أيضًا، وظلوا في نومهم هذا قرونًا عدة، وأخفىٰ الله عنهم النظار وهم في كهفهم ذلك حتىٰ بعثهم مرة أخرىٰ بعد أكثر من ثلاثة قرون، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ أَوَىٰ الْفِتْيَةُ إِلَىٰ الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[1].

قال الفتىٰ : وهل بليت أجسامهم في الكهف طوال تلك القرون..؟

قال الشيخ : لا، بل حفظ الله أجسادهم سليمة في رقدتهم السرمدية هذه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[2].

قال الفتىٰ : وما الحكمة في سريان تكريمهم علىٰ الكلب وهو حيوان لا يعقل؟

(١) سورة الكهف: ١٠-١٢.
(٢) سورة الكهف: ١٨.

قال الشيخ : لقد كان تكريمًا بالتبعية وصار الحارس الأمين عليهم لا يستطيع أحد أن يقترب منهم أو يمسهم بسوء. ذلك من آيات الله.

قال الفتىٰ : وما الحكمة في بعثهم بعد ثلاثة قرون التي ناموها؟

قال الشيخ : ليؤمن الناس بحقيقة البعث والنشور. كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[1]، ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا

قال الفتىٰ : كأنهم لم يشعروا بتلك القرون الثلاث التي قضوها نيامًا في الكهف؟

قال الشيخ : طبعًا وظنوا أنهم قضوا ساعات من نهار أو ليل في نومهم، وهذا هو المثل الثاني الذي يضربه الله للبشر ليستيقنوا حقيقة البعث والنشور، وليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها.

قال الفتىٰ : وما ذلك المثل الأول؟

قال الشيخ : هو العزيز الذي مرّ علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ

---

(١) سورة الكهف: ١٢.

(٢) سورة الكهف: ١٩.

بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾[1].

قال الفتىٰ : وكيف عرف فتية الكهف أنه مضىٰ عليهم أكثر من ثلاثة قرون؟

قال الشيخ : بعد أن استيقظوا ودارت بينهم المناقشة عن المدة التي قضوها نيامًا أحسوا بالجوع واتفقوا علىٰ شراء طعام لهم فقال أحدهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾[2].

قال الفتىٰ : حكمة أخرىٰ نستبينها وهي بقاء العملة الفضية معهم سليمة وهي من رقائق الفضة طوال ثلاثة قرون، كما أنهم لا يشعرون بمضي هذه السنوات الكثيرة بدليل هذا التحذير وتلك النصيحة لا ينكشف أمرهم فيرجموا حتىٰ الموت أو يجبروهم علىٰ الكفر والعودة إلىٰ عبادة الأوثان.. وماذا فعل رسولهم إلىٰ المدينة؟

قال الشيخ : لما ذهب أحدهم إلىٰ المدينة ليشتري طعامًا لهم وجد تغييرًا شاملًا في الدور والقصور والطرقات والميادين،

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٢) سورة الكهف: ١٩-٢٠.

ورأىٰ الكنائس الضخمة في وسط المدينة بأبراجها العالية المنتهية بالصليب تدق نواقيسها المجلجلة تدعو الناس للصلاة، وشاهد الرجال والنساء والأطفال يهرعون إلىٰ الكنيسة في أمان واطمئنان، فسأل، فقيل له: هذا حالنا كما ترىٰ أمن وسلام وحرية للعبادة والتعبُّد، فاستغرب الأمر ولم يصدق ما سمع لولا أنه رأىٰ بعيني رأسه تزاحم الناس للدخول في الكنيسة، ثم تشجع وسال مرة أخرىٰ: أوَ ليس هذا بعهد «دقلديانوس» مضطهد المسيحية. قيل له: ذاك عهد مضىٰ منذ أكثر من ثلاثة قرون فهل تعرفه. قال: نعم فقد فررت وفتية إخواني من مذابح دقلديانوس واختبأنا في كهف بالجبل وجئت لأشتري طعامًا لهم بهذه العملة، فالتف الناس حوله وشاهدوا تلك العملة النقدية التي تثبت ما قاله الفتىٰ لأنها كانت من عصر الاضطهاد فصدّقوه وأكرموه وساروا معه إلىٰ الكهف المعلوم ووقفوا علىٰ الباب لم يجرؤ أحد منهم علىٰ دخول الكهف خشية أن يمزقه الكلب، ودخل الفتىٰ فقط وقصّ علىٰ إخوانه ما رأىٰ وما سمع، وقدّم لهم الطعام الذي أحضره لهم فأكلوا وحمدوا الله علىٰ ما آتاهم من نعمة وفضل وإيمان بالله ونجاة من القتل، ثم أصابهم النعاس مرة أخرىٰ كما ناموا أول مرة.

ولما طال وقوف أهل المدينة علىٰ باب الكهف ولم يخرجوا فقالوا: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾[1].

قال الفتىٰ : ما ه المقصود ببناء مسجد عليهم..؟

قال الشيخ : يُقصد بذلك بناء مكان للتعبُّد ، ويُذكِّر رواده بقصة أهل الكهف:
﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًىٰ * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً * هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[2].

قال الفتىٰ : ذُكر أيضًا في القرآن ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً * قُلْ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾[3] فما الغرض من ذلك؟

قال الشيخ : هذا ذكر لحقيقة السنين التي قضاها أهل الكهف نيامًا منذ دخلوا الكهف حتىٰ بُعثوا أول مرة وهي ثلثمائة وتسع سنوات، ولكن تبعها نصيحة أخرىٰ مثل البحث عن عدد أهل الكهف، وهو ألا يشغل الإنسان نفسه بالقشور ويترك

(١) سورة الكهف: ٢١.
(٢) سورة الكهف: ١٣-١٥.
(٣) سورة الكهف: ٢٥-٢٦.

لب الأمور، فهذه كلها عظام وحِكم يسوقها القرآن من خلال السرد القصصي للحوادث.

قال الفتىٰ : رحم الله أهل الكهف فهم علىٰ نور من ربهم؟

قال الشيخ : ﴿وَتَرَىٰ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّتَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾[1].

قال الفتىٰ : ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾[2].

قال الشيخ : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾[3].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَىٰ الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾[4].

قال الفتىٰ : ما الحكمة في أنه بالنسبة لعدد أهل الكهف ذكر ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[5].

قال الشيخ : كان من الممكن أن يذكر الله عددهم مرة واحدة لأنه يعلم بعددهم، وكذلك يوجد أناس من أهل العلم يعرفون

---

(١) سورة الكهف: ١٧.
(٢) سورة الكهف: ١٧.
(٣) سورة الكهف: ١٧.
(٤) سورة الكهف: ١٥-١٦.
(٥) سورة الكهف: ٢٢.

عددهم أيضًا. ولكن الله بيَّن هذه الإجابة البليغة ليعلم الناس أن يسألوا في جوهر الأمور مثل العظة المستفادة من قصتهم، فإن عدد أهل الكهف قلَّ أو كثُر لا قيمة له، فالحكم الذي يجري علىٰ فرد منهم كالذي يجري علىٰ عشرة سواء بسواء، فلهذا يكون البحث عن معرفة عددهم لغوًا لا فائدة منه.

❁ ❁ ❁

القسم (١٤)
عهد النبي محمد ﷺ

قال الفتىٰ : هذا آخر قسم في جنة الحيوان، وهو عهد نبي الإسلام محمد ﷺ، وإني أرىٰ في الصدارة «فيلًا» ضخمًا رافعًا خرطومه إلىٰ أعلىٰ كأنه يؤدي التحية والسلام في هدوء وتؤدة وعلىٰ ظهره بعض الطيور. فما قصته؟

قال الشيخ : هذا الفيل المبارك سجل التاريخ له عامًا يقال له «عام الفيل» وهو العام الذي وُلد فيه النبي محمد ﷺ، وكان ذلك سنة ٥٧١م.

وقصة هذا الفيل المبارك أن إقليم اليمن كان تابعًا لسلطان إبراطور الحبشة المسيحي الديانة، وكان (أبرهة) هو الوالي علىٰ اليمن من قِبَل الحبشة، وتقربًا للإمبراطور فكر هذا الوالي أن ينشر الديانة المسيحية في الجزيرة العربية، ولكنه وجد أن أغلب السكان العرب من الوثنيين وعبدة الأصنام التي حول الكعبة بمكة المكرمة، وأنهم يسعون للطواف حولها وأداء مناسك الحج كل عام في الأشهر الحرم، ويقدّسون حرمات الكعبة الشريفة وما حولها من الحرم في مكة، وأن من دخلها كان آمنًا ولا يحل فيها الحرب أو القتل أبدًا.

لهذا عزّ علىٰ «أبرهة» أن يرىٰ هذا التعظيم والتبجيل من كافة العرب لأم القرىٰ «مكة» فعزم علىٰ هدم الكعبة

الشريفة، وقاد جيشًا جرارًا إليها يملأه الغرور ويأكل قلبه الحسد والكراهية مؤملًا أن يظفر بأكبر حدث في العالم وهو الاستيلاء علىٰ الكعبة الشريفة بيت الله الحرام وإزالتها من مكانها قوةً واقتدارًا. وسار بجيشه وفي مقدمته فيل ضخم هو الذي تراه أمامك حتىٰ وصل إلىٰ الطائف ثم استمر حتىٰ أصبح علىٰ مشارف مكة. وهناك حدث أمر عجيب لم يكن في الحسبان فقد رفض الفيل نهائيًا أن يتقدم خطوة واحدة إلىٰ مكة. وأُثخن بالحراب حتىٰ سالت دماؤه ولكنه ظل ممتنعًا أن يسير في اتجاه الكعبة، وجرب بان أُدير رأسه إلىٰ الخلف فهرول في السير، وبينما الجند وقوفًا ينظرون في دهشة وحيرة وعلىٰ رأسهم «أبرهة» ما قد حلّ بالفيل من مكر ورفض السير في اتجاه الكعبة ويدبرون حلًا آخر يرهبون به العرب ويقضون به علىٰ الكعبة إذ داهمتهم لعنة السماء علىٰ عجل فلم تمهلهم وقتًا ولم تتركهم زمنًا، بل انقضت عليهم رُسل الرحمن كالصاعقة فلم تُبقِ منهم أثرًا ولم تذر منهم نفرًا. ذلك قوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيل * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[1].

(١) سورة الفيل: ١-٥.

قال الفتىٰ : كأن هذا الفيل المبارك قد أدىٰ خدمة جليلة بوحي من الله وأسهم في إنقاذ الكعبة من هدم محقق.

قال الشيخ : نعم، لقد كان امتناع الفيل من السير نحو الكعبة عبرة كبرىٰ ظلت مدىٰ التاريخ تُذكِّر الناس بأن الكعبة بيت الله الحرام لها رب يحميها من كيد الكائدين واعتداء المعتدين، ثم أرسل الله علىٰ جيش أبرهة تلك الطيور السماوية فورًا تحمل في مناقيرها حجارة صغيرة حارقة فيها الهلاك وفيها الدمار، فأخذت أسراق هذه الطيور تقذف الجند بتلك الحجارة كالشهب الحارقة وكالأسهم النارية قذفًا لا هوادة فيه ولا رحمة جزاء بغيهم وعزمهم علىٰ الاعتداء علىٰ بيت الله الحرام، فباؤوا بغضب من الله وأصبح الجيش جثثًا ميتة وأشلاء متناثرة تقيحت أجسامهم وتعفنت أبدانهم وفني الجيش عن آخره ولم يبق منه إلا هذا الفيل سليمًا معافًا رافعًا خرطومه إلىٰ أعلىٰ تحية وسلامًا ورمزًا علىٰ قدرة الله، وبعد أن أدت الطيور مهمتها بحذق ومهارة حطت جميعها علىٰ ظهر الفيل وأخذت ترتل بنغم ملائكي جميل «للبيت رب يحميه» وغاب الجميع عن الوجود ليخلدوا في جنة الحيوان.

قال الفتىٰ : هل كان ميلاد «محمد» في عام الفيل عاديًا أم اكتنفته معجزات؟

قال الشيخ : لقد كان ميلاده في «مكة» عاديًا مثل كل الأطفال من البشر.

قال الفتىٰ : وماذا عن حياة «محمد» الأولىٰ في مهده وصباه؟

قال الشيخ : لقد تزوج أبوه «عبد الله بن عبد المطلب» من أمه «آمنة بنت وهب» ولما يمضي علىٰ زواجهما بضعة أيام سافر «عبد الله» مع قافلة إلىٰ الشام في تجارة وترك زوجه العروس ولا زالت أكُفها وقدماها مخضبة بالحناء، وبعد مضي شهرين وفي أثناء عودة القافلة مرّ «عبد الله» بيثرب لزيارة أخوال أبيه من بني النجار، فمرض هناك ومات، فحزنت عليه زوجته «آمنة» أشد الحزن لأنها لم تنعم بعد بحياتها الزوجية معه وقد اختطفه الموت فجأة وهو في ريعان شبابه إذ كان في الرابعة والعشرين من عمره تقريبًا.

ولقد خفّف من حزن تلك الزوة الثكلىٰ شعورها بجنينها في بطنها، وتوسمت في وليدها أن يكون لها عوضًا عن أبيه الراحل الذي فارقها إلىٰ الأبد، لهذا وُلد «محمد» يتيمًا فقد حرمه القدر من عاطفة الأبوة وأحاطته أمه بحنانها وأفاضت عليه من حبها اللا نهائي لتعوضه ما فقده من أبيه- وعندئذٍ نشأ محمد علىٰ أسس من التوحيد حتىٰ في الحب لأمه فقط، وتعلّم من أجلها كلمة واحدة هي (أمي) ولم يشرك في حبها أحدًا.

وتعلَّم بعدئذٍ كلمة (جد) رمزًا له عن رجل كهل هو «عبد المطلب» كافله، ومضت سنوات الطفولة الخمس

علىٰ محمد، ورغم شظف العيش فكان أجمل ما يكون خَلقًا، وأنضر ما يكون حُسنًا، وأكمل ما يكون جسمًا.
وكان في نظر أمه روحها وسعادتها ومنتهىٰ أملها ورجائها مثل كل أم لوحيدها، وقررت الأم أن تحمل طفلها ومعها خادمتها «بركة أم أيمن» وتذهب «إلىٰ يثرب» لزيارة قبر أبيه الراحل والتعرُّف علىٰ أخوال جده من بني النجار.
تلك رحلة محمد الطفل الأولىٰ من مكة إلىٰ يثرب، ولا يدري أن القدر يخبئ له هجرة كبيرة من بعد سبع وأربعين سنة من نفس مكة إلىٰ يثرب ليكون فيها ميلاده ونُصرته وعزته، ثم يكون فيها أخيرًا قبره الشريف، وتصبح يثرب فيما بعد مدينة الرسول المنورة يسعىٰ إليها المسلمون كل عام من جميع بقاع العالم لزيارة قبره الشريف، وبعد أن مكثت «أم النبي» شهرًا في يثرب قفلت راجعة إلىٰ مكة، في الطريق الوعر الشاق بين الجبال والتلال والصخور والرمال، وبين حرارة الشمس المحرقة ولوافح الرياح العاصفة حدث ما لم يكن في الحسبان وقسا الدهر مرة أخرىٰ علىٰ ذلك الطفل اليتيم «محمد».
فقد مرضت أمه في ذلك الطريق المنقطع، وأغلب الظن أنها تعرضت لضربة شمس قوية لم تمهلها إلا ساعات وماتت ودُفنت «بالأبواء»، وبكىٰ «محمد» الطفل بكاءًا مريرًا، وأخذ صراخه يشق عنان السماء، وتشبث بقبرها لا يريد فراقها، فهي أمه ولا احد في الدنيا يعدلها حبًا

وحنانًا، وظل «محمد» يبكي، وتبكي معه «بركة أم أيمن»، وتبكي لأجله ملائكة السماء، حتىٰ انفطر قلبه وغلبه النعاس فحملته جاريته واستأنفت السير في طريقها إلىٰ مكة.. وبهذا أصبح محمد كامل اليتم من الأبوين منذ الخامسة من عمره، وظل في كفالة جده «عبد المطلب» حتىٰ مات جده ومحمد في الثامنة من عمره فكفله من بعده عمه «أبو طالب» شقيق أبيه. وظل هكذا في كفالة عمه حتىٰ بعد النبوة إلىٰ أن مات «أبو طالب» وهو في الثمانين من عمره، ومحمد في الخمسين.

وشب محمد صبيًا في بيت عمه، واشتغل في رعي الأغنام، ولما صار شابًا اشتغل في التجارة حتىٰ بلغ عمره الخامسة والعشرين.

قال الفتىٰ : كأن محمد قد نشأ الفترة الأولىٰ من حياته حتىٰ طور الشباب عاديًّا لم تحدث منه معجزات؟

قال الشيخ : نعم، لقد كانت نشأته عادية ، ولكنه كان علىٰ خُلُق عظيم وفضائل حميدة، وكان يُلقب بـ«الأمين».

قال الفتىٰ : هل يمكن أن أعرف حياة سيدنا «محمد» ﷺ بصفة إجمالية؟

قال الشيخ : نعم، وطبعًا يكون إجماليًا لأنه لو كان بالتفصيل لاحتاج ذلك إلىٰ مجلدات، والرأي عندي أن حياته ﷺ يمكن تقسيمها إلىٰ ثلاث فترات هي:

أ – الفترة الأولىٰ: وهي تبدأ من ميلاد «محمد» في سنة ٥٧١م لغاية بدء النبوة وهو في الأربعين من عمره، أي في سنة ٦١١م.

ب- الفترة الثانية: تبدأ من أول النبوة إلىٰ الهجرة من مكة إلىٰ يثرب في سنة ٦٢٢م، وكان عمره ﷺ اثنين وخمسين سنة.

ج- الفترة الثالثة: تبدأ من الهجرة إلىٰ يثرب «المدينة» إلىٰ أن انتقل ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ في سنة ٦٢٢م، وكان في الثالثة والستين من عمره.

قال الفتىٰ : هل أستطيع أن أعرف باختصار أيضًا أهم الأحداث في كل فترة من هذه الفترات الثلاث؟

قال الشيخ : نعم، وسيكون التركيز علىٰ أهم الحوادث فقط وباختصار تام مفيد:

أ – فإن الفترة الأولىٰ من حياة محمد إلىٰ أن بُعث نبيًّا ﷺ حدث بها ما يأتي:

١- تزوج «محمد» وهو في الخامسة والعشرين من عمره بالسيدة «خديجة بنت خويلد» وهي في الأربعين من عمرها، وكانت سيدة غنية ومن أشراف مكة، وأنجبت للنبي البنين والبنات. وكان مالها الوفير

سندًا للنبي في عيشه السعيد قبل الرسالة وبعدها، حيث كان يصرف من مالها بسخاء علىٰ المسلمين، وقد نزلت بعض الآيات في ذلك تذكيرًا للنبي ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾[1].

٢- حكَّمت قريش «محمد» في وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة عندما أعيد بناؤها، وكان عمر النبي ﷺ خمسة وثلاثين سنة، فوضع الحجر في ردائه وأشركهم في حمله حتىٰ رفعوه إلىٰ المكان المطلوب، ووضعه ﷺ بيده الشريفة في ركن الكعبة. وفي هذه السنة وُلدىٰ صغرىٰ بنات النبي «فاطمة الزهراء».

٣- عندما بلغ «محمد» الأربعين من عمره نزل عليه الوحي وهو جبريل عليه السلام حيث كان يتحنث- أي يتعبَّد- في غار حراء في جبل يبعُد ثلاثة أميال عن مكة، وكان ذلك في أواخر شهر رمضان من عام ٦١١م، وقد كان «محمد» نائمًا فجاءه جبريل وبشّره بالرسالة والنبوة وعلَّمه أول سورة في القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ *

(١) سورة الضحىٰ: ٦-٨.

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] وبدأت الدعوة الإسلامية في الانتشار سرًا في أول الأمر، ثم بعد ذلك جهرًا، وكان أول من آمن بالرسول «السيدة خديجة»، وعليّ، وبنات النبي، وأبو بكر، وعثمان. وأما عمر فأسلم في السنة الخامسة من البعثة.

ب- وأما الفترة الثانية، وهي التي تبدأ من أول النبوة إلىٰ الهجرة من مكة، فأهم ما حدث بها هو:

١- بعد أن ازداد عدد المسلمين في مكة واشتد إيذاء قريش لهم، أذن الرسول لبعض المسلمين بالهجرة إلىٰ الحبشة ليجدوا عند ملكها المسيحي الأمن والإيواء. وكان ذلك بعد بدء النبوة بخمس سنوات، وكان عدد المهاجرين عشرة رجال وأربع نساء في أول الأمر، ثم زاد عدد المهاجرين إلىٰ الحبشة بعد ذلك حتىٰ أصبحوا ٨٢ من المسلمين والمسلمات.

٢- خشيت قريش من النبي وازدياد قوته وأنه أصبح خطرًا علىٰ مراكز السلطة التي يتقلدونها في مكة فقرروا أن يحاصروا المسلمين في شِعب بالجبل خارج مكة، ويحاصروا معهم أيضًا «بني هاشم»

(١) سورة العلق: ١-٥.

وعلىٰ رأسم أبو طالب والعباس حتىٰ يُسلِّموا لهم النبي- وقد ظل هذا الحصار ثلاث سنوات قطعت فيها قريش كل علاقة بالمسلمين وبني هاشم، لا يتزوجون منهم، ولا يتعاملون معهم، وكان بحق حصارًا قاسيًّا اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، قد تحمله المسلمون ومَن هم في حمايتهم من بني هاشم بكل مشقة وصعوبة.

٣- مات أبو طالب عم النبي وحاميه وسنده ضد كفار قريش بعد إنهاء ذلك الحصار مباشرةً، وبعد ثلاثة أيام من موت عمه توفيت زوجته المخلصة السيدة «خديجة»، فحزن الرسول عليها حزنًا شديدًا، وسُمِّي ذلك العام بعام الحزن، وكان النبي في ذلك العام في الخمسين من عمره.

٤- حادثة الإسراء والمعراج وكانت تسرية للنبي ﷺ بعد موت عمه وزوجته بقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١].

---

(١) سورة الإسراء: ١.

كما إنها كانت فتنة للناس، إذ قال الله فيها ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾[1] فقد كذّبته قريش فيها ولم يصدقها في أول الأمر ضعاف العقيدة، ولكن المؤمنين حقًّا صدّقوها وآمنوا بها مباشرةً، ولذلك كانت امتحانًا وتمحيصًا للمؤمنين، فقد قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2]. ثم كانت بشرىٰ للنبي بفتح بلاد الشام للمسلمين، وفعلًا فُتحت بلاد المقدس بعد خمسة عشر عامًا في عهد عمر بن الخطاب وبنىٰ بها المسجد الأقصىٰ، وفي ليلة المعراج فُرضت الصلاة خمسًا علىٰ المسلمين وأبحت سمت المسلمين ورمز الوحدة في العقيدة والإيمان، وقد ذكر الله كلمة عبده في ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ حتىٰ لا يقع المسلمون في خطأ في تأليه نبيهم كما وقع فيه المسيحيون.

٥- إسلام نفر من أهل «يثرب» في موسم الحج بمكة، وفي العام التالي حضر منهم سبعون من المسلمين وبايعوا الرسول علىٰ حمايته ونُصرته والحرب دونه، وذلك

---

(١) سورة الإسراء: ٦٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٢-٣.

في بيعة (العقبة المباركة) التي غيّرت مركز الثقل في الدعوة الإسلامية، ونقلته من مكة إلىٰ يثرب بعد الهجرة، وبعد أن علمت قريش بهذا الاتفاق بين النبي وأهل (يثرب) طاش صوابهم ومضوا في التنكيل وإيذاء الملمين وتعذيب الأتباع والأبناء والمستضعفين- عندئذٍ أذن الرسول للمسلمين بالهجرة إلىٰ يثرب وكان عُمر النبي عندئذٍ واحدٍ وخمسين عامًا، وكان عدد المسلمين حوالي ٤٠٠ نفرًا.

٦- لما وجدت قريش هجرة المسلمين جماعية إلىٰ يثرب خشيت من انتشار الإسلام وتُجمُع المسلمين في يثرب حيث يصبحون خطرًا علىٰ قريش في مكة فأجمعوا أمرهم بعد تشاور في «دار الندوة» علىٰ قتل النبي ليتخلصوا منه، وذلك بأن يشترك من كل قبيلة واحد في القتل ليتوزع دمه علىٰ القبائل كلها، فلا يستطيع بنو هاشم مُنازلتهم جميعًا، ولكن جبريل أخبر النبي بتآمرهم هذا وأذن للنبي بالهجرة إلىٰ مكة في تلك الليلة المحددة لجريمتهم، وأمر النبي «عليّ ابن أبي طالب» أن ينام في فراشه، وخرج النبي من داره ليلًا وأولئك الأعداء وقوفًا علىٰ باب داره خشعًا أبصارهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ تحسبهم أصنامًا ليس

فيها حراك. لأن النبي قرأ عليهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[1].

وخرج النبي مارًا بين صفوفهم مرفوع الرأس وذهب إلىٰ صديقه أبي بكر وهاجرا سويًا من مكة إلىٰ المدينة، وكان النبي في الثانية والخمسين من عمره الشريف في سنة ٦٢٢م.

ومما يُذكر في هذه المناسبة للهجرة أن المسلمين كانوا يهاجرون من مكة إلىٰ المدينة سرًا زرافات ووحدانًا وفي جنح الليل ليكون سترًا لهم من تعقب المشركين، ما عدا عمر بن الخطاب فقد هاجر في وضح النهار، بل وتحدىٰ المشركين بقوله لهم: «من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو يرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي»، وأما عليّ بن أبي طالب فقد هاجر بعد هجرة النبي بثلاثة أيام بعد أن أدىٰ عن الرسول الودائع والأمانات لأصحابها من أهل مكة التي كانوا يودعونها عنده لأمانته.

ج- وأما الفترة الثالثة والأخيرة فقبل أن أذكر لك أهم أحداثها أريد أن أسألك هل ترىٰ في هذا القسم ناقةً بيضاء؟

(١) سورة يس: ٧.

قال الفتىٰ : نعم إني أرىٰ في هذا القسم ناقة ناصعة البياض تتهادىٰ في مشيتها، فما قصتها؟

قال الشيخ : إنها الناقة التي تشرفت بحمل رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ يثرب، ولما وصل يثرب وتزاحم الناس من أهلها لاستضافة رسول الله فكان يقول لهم «اتركوا الناقة فإنها مأمورة»(١) حتىٰ وقفت في المكان الذي بثني فيه المسجد النبوي الحالي بالمدينة المنورة.

قال الفتىٰ : لقد تشرفت هذه الناقة برسول الله فعلًا- وما هي أهم الأحداث في الفترة الأخيرة؟

قال الشيخ : ١- عندما وصل النبي ﷺ إلىٰ يثرب آخىٰ بين أهل يثرب من الأنصار والمسلمين من أهل مكة وهم المهاجرون، وكان هذا عملًا جليلًا وإنسانيًا لا ترقىٰ إليه أعظم النظم الاشتراكية الحالية. فمن ذا الذيي يقبل اليوم أن يتنازل طائعًا مختارًا عن نصف ما يملكه لغيره في الأموال والدار ويزاحمه غيره في رزقه وعقاره. ولكن تم هذا كله وأكثر منه في رضىٰ وقبول من الأنصار، بل آثروا المهاجرين علىٰ أنفسهم، بقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ

(١) حديث شريف.

عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]، ويسجل القرآن هذا العمل الجليل بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

٢- بدأت حياة الاستقرار للمسلمين في المدينة، ونزلت علىٰ الرسول آيات التشريع، ثم تقرر الأذان للصلاة، والقبلة إلىٰ الكعبة الشريفة، وكذلك فُرضت صلاة الجمعة وصوم رمضان والزكاة وفريضة الحج.

٣- في السنة الولىٰ من الهجرة تزوج الرسول بكريمة صديقه أبي بكر وهي «عائشة» أم المؤمنين وكانت في الثالثة عشر من عمرها، وذلك بوحي من الله وتوكيدًا لأواصر الصداقة والمحبة مع أبي بكر.

٤- وفي السنة الثانية للهجرة حدثت غزوة «بدر الكبرىٰ» وفيها انتصر المسلمون علىٰ أعدائهم من قريش رغم قلّة عدد المسلمين وعُدتهم، وفي تلك السنة أيضًا مات عدو المسلمين الأول «أبو لهب»، وقُتل العدو الثاني «أبو جهل» في غزوة بدر، وفي أثناء فرحصة

(١) سورة الحشر: ٩.

(٢) سورة الأنفال: ٦٢-٦٣.

النصر هذه توفيت «رقية» بنت النبي وزوجة عثمان ابن عفان.

٥- وفي السنة الثالثة للهجرة حدثت غزوة «أُحد» وفيها انتصر المسلمون أول الأمر ثم هُزموا لأنهم خالفوا الخطة الموضوعة للقتال. وقد كانت هذه الموقعة درسًا للمسلمين ونذيرًا لهم للطاعة والتسليم المطلق للقيدة الحربية في الغزوات. وفي هذه الموقعة قُتل «حمزة» عمّ النبي ﷺ.

٦- وفي السنة السادسة للهجرة توجّه النبي ﷺ في ألف وربعمائة مسلم من المدينة إلىٰ مكة ليعتمروا، ولما اقتربوا من مكة وعلمت قريش بما عزم عليه النبي منعوه فأرسل إليهم «عثمان بن عفان» ليخبرهم أن المسلمين حضروا للعمرة فقط والطواف بالعبة، ولكن قريش رفضت وقررت قتال المسلمين وحبست عثمان بن عفان عندهم في مكة. فثار المسلمون وطلبوا القتال وعاهدوا النبي في «بيعة الرضوان» علىٰ أن يحاربوا حتىٰ الموت وألَّا يتخلف منهم أحد، وقد سجل القرآن ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ

عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2]، ولكن حدث أن وقّع النبي ﷺ مع رسول قريش صلح «الحديبية» ورجع المسلمون في عامهم ذاك إلىٰ المدينة علىٰ أن يقدموا مكة للحج في العام التالي، وفعلًا تم ذلك.. وكانت هذه إجراءات تمهيدية لفتح مكة ونزلت فيها سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾[3].

٧- في العام الثامن الهجري- أي في سنة ٦٣٠م- تم فتح مكة ودخلها النبي علىٰ رأس جيش من المسلمين عدتهم عشرة آلاف مقاتل دون أن تُراق فيها الدماء بل كان تسليمًا مطلقًا من سادة قريش للنبي، واعتناق دين الإسلام عامة في مكة، وكُسرت الأصنام، وطُهرت الكعبة منها إلىٰ الأبد ، وطاف النبي والمسلمين حولها مُلبين داعين ذاكرين بصوت عال ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[4]،

(١) سورة الفتح: ١٨.
(٢) سورة الفتح: ١٠.
(٣) سورة الفتح: ١-٣.
(٤) سورة الإسراء: ٨١.

وكان هذا أسمىٰ ما يتوق إليه الرسول أن يعود إلىٰ بلده الحبيب مكة، ويرىٰ لواء الإسلام يرفرف عاليًا في البلد الحرام، وقد تحقق له ما كان يأمله وهو في الواحد والستين من عمره، ونزل عليه الوحي بالقول الكريم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾(١).

٨- بعد فتح مكة رجع الرسول إلىٰ المدينة وأخذت القبائل في الجزيرة العربية تعتنق الإسلام طائعة مختارة، وحصل نوع من الاستقرار الداخلي إلىٰ حدٍ ما، ثم أرسل النبي إلىٰ ملوك ورؤساء الممالك المجاورة يدعوهم للدخول في دين الإسلام، وممَّن أرسل إليهم «المقوقس» حاكم مصر، فأهدىٰ إلىٰ النبي جارية مصرية هي «مارية القبطية» فأسلمت وتزوَّجها النبي وولدت له ابنه «إبراهيم» الذي مات طفلًا صغيرًا بعد ستة عشر شهرًا من ميلاده وحزن عليه النبي وبكىٰ، فإن عاطفة الأبوة البشرية في مثل سن النبي وهو في الثانية والستين لها حكمها، وخاصةً إذا كان الأب لم يعش له أولاد ذكور من قبل، وقد كان بكاء النبي وحزنه علىٰ فقد ابنه أمرًا طبيعيًا كأي

(١)

إنسان من البشر في مثل ظروفه راضيًا بقضاء الله في ولده.. ولله الحكمة العالية في هذا القدر فلو أطال الله في «عُمر إبراهيم» وبعد انتقال الرسول إلىٰ الرفيق الأعلىٰ فماذا يكون حال المسلمين عندئذٍ هل يولونه عليهم حاكمًا وهو طفل صغير، أم ينحونه وهو ابن النبي، وكيف تكون نظرة المسلمين إليه فهل يعتبرونه نبيًّا وأبوه خاتم الأنبياء...

٩- ولما بلغ رسول الله ﷺ الثالثة والستين من عمره وأدىٰ حجة الوداع، وعمّت الدعوة الإسلامية جميع أنحاء الجزيرة العربية، وسير الجيوش الإسلامية لفتح الممالك المجاورة من الفرس في بلاد العراق، والرومان في بلاد الشام، لنشر الدين الإسلامي بها اطمأن النبي ﷺ علىٰ ثبوت قواعد الإسلام والشريعة المطهرة في قلوب الصحابة والمؤمنين وفي كتاب الله الكريم، وعندئذٍ نزلت آخر آية في القرآن الكريم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينـاً﴾(١)، وبعد ذلك بقليل مرض رسول الله أيامًا معدودات وانتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ بعد أن أدىٰ رسالته كاملة وفاضت روحه الشريفة إلىٰ بارئها بين ترتيل

(١) سورة المائدة: ٣.

الملائكة ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1].

قال الفتىٰ : هل كانت هناك حكمة في أن يتولىٰ الخلافة أبو بكر الصديق بعد وفاة النبي مباشرةً، وكان الأولىٰ بها «سيدنا علي بن أبي طالب» لقرابته من رسول الله؟

قال الشيخ : لقد كان أبو بكر أكبر الصحابة سنًا، إذ كان يبلغ الواحدة والستين من عمره، بينما كان سيدنا عليّ كرم الله وجهه في السادسة والثلاثين من عمره عند وفاة النبي، وأما عمر بن الخطاب فكان في الواحد والخمسين من عمره تقريبًا، ثم أن أبو بكر كان صهر الرسول وصديقه الحميم، وفي الواقع إن الذي فصل في هذا الموضوع هم المسلمون أنفسهم فقد اختاروا أبا بكر وبايعوه بالخلافة، وكان هذا تشريعًا بالغ الأهمية للنظم الديمقراطية، فقد ضرب المسلمون بذلك أروع المُثُل علىٰ حرية الرأي في نظام الشورىٰ.

قال الفتىٰ : وأظن أيضًا كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال؟

قال الشيخ : نعم لقد أسلم أبو بكر في أول الدعوة وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، كما كان سيدنا عليّ أول من أسلم أيضًا من الصبية فقد كان في الرابعة عشر من عمره، وأما سيدنا عمر بن الخطاب فقد ألم في السنة الخامسة من

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

الدعوة في ريعان شبابه إذ كان في الثالثة والثلاثين من عمره لأنه كان اصغر من أبي بكر بعشر سنوات.

قال الفتىٰ : كم كان عدد نساء النبي ﷺ، وما الرأي عندكم فيما يقوله المستشرقون في ذلك؟

قال الشيخ : كان عددزوجات النبي أمهات المؤمنين تسعًا، وكلهن كُنَّ ثيبات، إلا عائشة فقط فقد تزوَّجها بكرًا، ويمكن أن نستعرض بعض حالات الزواج وهي:

١- تزوج «محمد» قبل النبوة وهو في الخامسة والعشرين من عمره من السيدة «خديجة بنت خويلد» وكانت في الأربعين من عمرها وبقيت معه خمسًا وعشرين سنة حتىٰ توفاها الله وهي في الخامسة والستين وكان النبي في الخمسين من عمره، أي أنه قضىٰ زهرة شبابه مع زوجة واحدة وكانت تكبره سنًا بكثير، وهذا ما يبطل تقوُّل المستشرقين ويدحض تخرساتهم.

٢- تزوج بعد ذلك من السيدة (سودة بنت زمعة) وكان زوجها قد مات عنها ولم يكن لها عائل من المسلمين، وباقي أهلها من كفار قريش ولا يمكن أن تذهب إليهم فيسومونها سوء العذاب لترتد عن دينها، فتزوجها النبي ليعولها رغم أنها كانت طاعنة في السن وعاطلة من الجمال والمال.

٣- تزوج بأم المؤمنين «عائشة بنت أبي بكر» بوحي من الله عن طريق جبريل.

٤- تزوج «حفصة بنت عمر بن الخطاب» بعد أن مات عنها زوجها في موقعة بدر وكان عمرها ثمانية عشر عامًا، وقد عرضها أبوها علىٰ أبي بكر وعثمان فاعتذرا عن زواجها وأخبر النبي بذلك، فتزوجها الرسول تكريمًا لعمر بن الخطاب وردًا لاعتبارها.

٥- تزوج بأمر من الله من بنت عمته «زينب بنت جحش» بعد أن طلقها زوجها «زيد بن حارثة» مولىٰ رسول الله ليكون في ذلك تشريع للمسلمين، ونزل في ذلك قول الله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾[1]. وليقضي علىٰ العادات القديمة من أن الشريفة إذا تزوجت من رقيق أو مولىٰ تهون منزلتها ويقل قدرها ولا يُقبل الأشراف علىٰ زواجها ثانيةً، لهذا كان زواج الرسول منها تكريمًا لها وتشريعًا للقضاء علىٰ تلك العادات الخاطئة.

(١) سورة الأحزاب: ٣٧.

٦- تزوج النبي من السيدة «زينب بنت خزيمة» بعد أن قُتل زوجها في موقعة (أُحد» إيواء وعزاء لها في مصابها في زوجها.

٧- وكذلك الحال في زواجه من السيدة (أم سلمة) فقد قُتل زوجها في موقعة «أُحد» وتزوجها رسول الله إيواءً لها ولأولادها، لأنها كانت كبيرة في السن، وكان زوجها «عبد الله بن المغيرة» ابن عمة الرسول.

٨- وكذلك تزوج الرسول من «مارية القبطية» ليكون ذلك تشريعًا للمسلمين في الزواج من مسيحية أو يهودية حتىٰ ولو بقيت علىٰ دينها.

٩- صفية «بنت حيي بن أخطب» كانت يهودية من نسل هارون وكانت زوجة ملك اليهود من بني قريظة التي قضىٰ عليها جيش المسلمين في غزوة الخندق بسبب خيانة اليهود للنبي، وقد وقعت «صفية» أسيرة فتزوجها الرسول تكريمًا لها وحتىٰ لا تشعر بالذل بعد العز، وكانت تفتخر علىٰ باقي زوجات النبي بقولها زوجي «محمد» وأبي «هارون» وعمي «موسىٰ».

لهذا كان زواج النبي ﷺ من نسائه إما لتوطيد أواصر المحبة مع صحابته كما فعل مع أبي بكر وعمر

ابن الخطاب، وإما زواجًا للإيواء بعد أن استشهد أزواجهن في الغزوات، وإما للتشريع للدين الحنيف.

وهناك خدمات جليلة أخرىٰ قامت بها نساء النبي علىٰ اختلاف أعمارهن وطبقاتهن، فقد قُمن بتبليغ الأحكام الخاصة بالنساء للمسلمات وهي التي لا تستطيع تبليغها الرجال مثل أحكام الطهارة والغسل والحيض والنفاس والولادة والرضاعة وغيرها مما هو خاص بالنساء، فقد وضحن الحدود الفاصلة فيها بين الحلال والحرام، والجائز والممنوع، هذا هو فضل أمهات المؤمنين زوجات رسول الله في التشريع الإسلامي الخاص بالنساء فقط.

قال الفتىٰ : هل أستطيع أن أعف شيئًا عن أولاد النبي وبناته؟

قال الشيخ : نعم، فقد أنجبت السيدة «خديجة» لرسول الله ولدين هما: القاسم وعبد الله وماتا صغيرين. كما أنجبت له أربع بنات هن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد تزوجن جميعًا في حياة النبي، وتوفي إلىٰ رحمة الله منهن ثلاث في أيام الرسول هن: زينب ورقية وأم كلثوم، وأما فاطمة الزهراء فماتت بعد النبي بستة أشهر، وأما باقي زوجات النبي فلم يُنجبن خلفًا ما عدا «مارية القبطية» التي ولدت (إبراهيم) ومات طفلًا وعمره ستة عشر شهرًا.

قال الفتىٰ : أريد أن أعرف شيئًا عن بنات النبي الأربعة، فهن سلالته المطهرة؟

قال الشيخ : ١- السيدة زينب تزوجت من ابن خالتها (أبو العاص بن الربيع) قبل النبوة، ومات في السنة السابعة للهجرة.

٢- السيدة رقية تزوجت من ابن عم النبي (عتبة بن أبي لهب) قبل النبوة، ولكنه طلقها بعد النبوة بعد أن وقف «أبو لهب» موقفا لعداء من الرسول. ثم تزوجت من بعده من «عثمان بن عفان» وصحبته في الهجرة إلىٰ الحبشة ثم عادت إلىٰ مكة، وماتت أثناء غزوة «بدر الكبرىٰ» في السنة الثانية للهجرة.

٣- السيدة أم كلثوم كذلك كان قد تزوجها ابن عم النبي «عتيبة بن أبي لهب» وطُلقت مثل أختها «رقية» ثم تزوجها عثمان بن عفان بعد وفاة «رقية» وبقيت معه ست سنوات حتىٰ ماتت في السنة التاسعة للهجرة.

٤- السيدة فاطمة الزهراء زوّجها رسول الله من ابن عمه «علي بن أبي طالب» وكانت في الثامنة عشر من عمرها، وكان الزواج بعد أربعة أشهر من زواج النبي (بعائشة) في السنة الثانية للهجرة. وقد أنجبت من سيدنا علي رضي الله عنه ولديه (الحسن الحسين) وكريمتيه (زينب وأم كلثوم)، وقد توفيت السيدة فاطمة الزهراء بعد انتقال النبي ﷺ بستة شهور كما سبق أن ذكرت،

وقد انحصرت سلالة النبي ﷺ فيمن أنجبته السيدة فاطمة الزهراء فقط، لأن باقي أخوتها إما لم تنجب أو ماتت أطفالهن صغارًا. ولقد تشرفت القاهرة بقبر سيدنا الحسين وأخته السيدة زينب بنت فاطمة الزهراء وآخرين غيرهما من الدوحة المباركة التي قال الله فيهم ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[1]، وكذلك ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

قال الفتىٰ : هل أستطيع أن أعرف بعض الواقف ذات الأهمية الخاصة أو الحوادث ذات الأثر الكبير في الدعوة الإسلامية؟

قال الشيخ : الإجابة عن هذا السؤال جديرة بالاهتمام وهي تبرز المواقف والأحداث التي كان لها تأثير فعّال وأثر كبير علىٰ الدعوة الإسلامية، وفي نظري أن هذه المواقف قد تختلف فيها الآراء حسب نظرة كل واحد ووزنه للأمور، ولا بأس أن أذكر لك ما أراه جديرًا في هذا المقام:

١ - القرآن الكريم المعجزة الكبرىٰ للرسول الأمي الذي يتحدىٰ به فحول الفصاحة والبلاغة والأدب من العرب، ولو كان محمد يعرف القراءة والكتابة من قبل النبوة لظن الناس أن

(١) سورة هود: ٧٣.
(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.

القرآن من كلامه شخصيًا نمقه ودبجه بلسانه العربي وبلاغته أو فصاحته، ولكنه كان أميًا، فكانت المعجزة الكبرىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1]، ثم يتحدىٰ الرسول المشركين بقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]، ويزيد التحدي بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[3]. ثم يبيِّن الله أن القرآن كلامه وليس مثل كلام البشر الذي تكثر فيه الاختلافات بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[4].

وعجزوا فعلًا، وسطعت شمس القرآن بنورها ونارها فأضاءت قلوب المؤمنين وحرقت أفئدة الكافرين. ثم يبيِّن الله كيفية نزول القرآن علىٰ الرسول ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[5]، ثم يبيِّن قدر القرآن وصدق حديقه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ

(١) سورة العنكبوت: ٤٨.
(٢) سورة يس: ٣٨.
(٣) سورة الإسراء: ٨٨.
(٤) سورة النساء: ٨٢.
(٥) سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

حَمِيدٍ﴾[1]، ثم يوضح الله دقة القرآن وتسجيله لكل شيء ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[2]، ثم يبيِّن الله مصدر القرآن وعظمته ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[3]. وللقرآن ميزة اختص بها وانفرد وهي أن تقرأه في سهولة، وتحفظه في يسر، وتسمعه في شغف، لا تمله الأذن مهما يُتلىٰ عليها، وفي هذا يقول الله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[4].

ومن إعجاز القرآن العجيب أن الأطفال لغاية الثانية عشر تستطيع حفظه عن ظهر قلب مع أنه يقع في حوالي ٥٢٠ صفحة من الحجم المتوسط، رغم أن الله تعالىٰ يقول فيه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعـاً مُتَصَدِّعـاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[5].

٢- حادثة الإسراء والمعراج التي ظلت موضع الجدل والنقاش مدىٰ الأربعة عشر قرنًا، وقد حقق العلم الحديث إمكان حدوث الإسراء قياسًا علىٰ الاختراعات الحديثة مثل التليفزيون والرادار.

(١) سورة فصلت: ٤١-٤٢.
(٢) سورة الكهف: ٤٩.
(٣) سورة البروج: ٢١-٢٢.
(٤) سورة القمر: ٢٢.
(٥) سورة الحشر: ٢١.

٣- الشهامة العربية والتعصب القبلي الذي كان يعلو فوق الدين، فقد كان النبي في حمىٰ أهله وعشيرته وعلىٰ رأسهم عمه (أبو طالب) مع أن كثيرًا منهم لم يدخلوا في دين الإسلام، ولولا تلك الحماية فربما قُضي علىٰ الدعوة في مهدها.

٤- غزوة بدر الكبرىٰ وانتصار المسلمين ممَّا شجعهم وأنزل الرعب في قلوب المشركين من قريش الذين آذوا المسلمين واستولوا علىٰ أموالهم وديارهم في مكة بعد الهجرة، ولذلك نزل قول الله في ذلك ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[1]، وقد كان عدد المسلمين في تلك الموقعة ثلثمائة فارس، وعدد الأعداء من قريش ألف مقاتل، ونزل في تلك الموقعة قول الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * ..... إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَىٰ الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2]. وبهذا تم النصر للمسلمين في موقعة بدر ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾[3].

---

(١) سورة الحج: ٣٩-٤٠.

(٢) سورة الأنفال: ٩-١٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٢٦.

٥- إيمان الصحابة العميق وشجاعتهم، وإخلاصهم للدعوة، وحبهم للنبي ﷺ، فوق حب الآباء والأبناء، فكانوا صناديد القتال وفرسان الميادين، وقاتلوا ببسالة لا تُوصف وبطولة نادرة لا يصدقها العقل، كانوا فدائيين حقًا يضحون بأرواحهم حبًا في الاستشهاد في سبيل الله. لهذا انتصروا وانتشر الإسلام علىٰ أيديهم، وعلىٰ رأس هؤلاء الصحابة: «حمزة وعلي وأبو بكر وعمر وعثمان وخالد بن الوليد وأبو عبيدة الجراح وعمر ابن العاص» وعنهم يقول الله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1].

٦- فتح مكة، إذ قضىٰ علىٰ آخر حصون الشرك في الجزيرة العربية، وتفرغ المسلمون للجهاد ونشر الإسلام في خارجها.

هذه في نظري دعائم الدعوة الإسلامية والعمد التي قام عليها صرح الدين الإسلامي وتكونت أول دولة إسلامية في الجزيرة العربية بعد ثلاثة وعشرين سنة من جهاد النبي محمد ﷺ، وهي فترة النبوة، وبفضل هاد الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم تكونت الإمبراطورية الإسمية الكبرىٰ، مما جعل المؤرخون يحنون رؤوسهم إبارًا لصاحب الدعوة وتمجيدًا لصحابته وأتباعهم.

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

قال الفتىٰ : هل حقًا ما يقال أن النبي «محمد» ﷺ كان استجابة من الله لدعاء سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل بعد أن أقاما بناء الكعبة بمكة بوحي من الله في الماضي السحيق؟

قال الشيخ : نعم هذا صحيح، إذ يقول الله في هذا المعنىٰ وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(١)].

قال الفتىٰ : ما هو فضل القرآن الكريم علىٰ الدعوة الإسلامية خاصة، والعالم أجمع؟

قال الشيخ : إن فضل القرآن الكريم علىٰ الدعوة الإسلامية لا يُحصىٰ ولا يُعد، ويمكن أن نذكر بعضها وهي:

١- القرآن هو كلام الله، ومعجزة رسوله، والعلم الذي يلتف حوله المسلمون جميعًا. يقول عنه الله تمجيدًا لشأنه وعلو مقداره ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٢)]، كما أن القرآن كله

---

(١) سورة البقرة: ١٢٧-١٢٩.

(٢) سورة الواقعة: ٧٧-٨٠.

من عند الله ﴿وَمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[1]، وشهد الله للنبي بصدق تبليغه الرسالة، ولو جاء في القرآن بكلام من عنده لقطعنا ذراعه، ولا يمنعنا أحد من الناس عن تنفيذ ذلك ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[2]. كما أن الله أقسم بالقرآن للنبي بقوله: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

٢- لقد بيَّن القرآن موف النبي ﷺ من تبليغ الرسالة، وكذلك مقامه وصفاته، بقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَىٰ اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾[4]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾[5].

ولقد كانت رسالة النبي «محمد» إلىٰ البشر كافة، ولم تكن خاصة بالعرب فقط، يقول الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ

(١) سورة النور: ٥٤.
(٢) سورة الحاقة: ٤٣-٤٧.
(٣) سورة يس: ١-٤.
(٤) سورة الأحزاب: ٤٥-٤٧.
(٥) سورة الفتح: ٢٨.

اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[١]، كما أن الله أكرم نبيه أيضًا بصفة الرحمة للناس أجمعين بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢]، وكذلك وصف الله النبي في القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، وأيضًا ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٤]، ويعتبر هذا تأكيد لما كان عليه «محمد» من أخلاق قبل النبوة، إذ كان يُلقب من قومه بالصادق الأمين.

كما أوضح القرآن أن الله اختص «محمد» بالنبوة والرسالة وهو رجل من بين العرب له كل خصائص البشر والإنسانية بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[٥]، وبيَّن القرآن أن النبي ﷺ كان معلمًا ومرشدًا للناس بقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[٦]، وأضاف الله أيضًا أن الرسول رجل اصطفاه من بينهم ليُعلِّمهم الحكمة والديانة والثقافة والرحمة

(١) سورة الأعراف: ١٥٨.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.
(٣) سورة القلم: ٤.
(٤) سورة الأحزاب: ٢١.
(٥) سورة الكهف: ١١٠.
(٦) سورة البقرة: ١٥١.

بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وفي هذا كله توضيح وتحقيق لبشرية «محمد» وأنه عبد الله ورسوله حتىٰ لا يقع أتباعه في خطأ تأليهه أو عبادته، ولذلك سلم المسلمون من عقائد الشرك وثبتوا علىٰ عقيدة التوحيد ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2].

٣- حفظ القرآن الشريعة الإسلامية وأحكام الدين فلم يمتد إليه أي تحريف أو تبديل بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]، وكذلك حفظ القرآن اللغة العربية من الضياع وأبقىٰ علىٰ لفظها وأصولها وقواعدها.

٤- حدَّث القرآن عن قصص بعض الأنبياء إجمالًا وتفصيلًا ليعلم الناس تاريخهم وجهادهم وما تحملوه في سبيل دعوتهم من اضطهاد وعنت، وفي ذلك عظة وذكرىٰ لأولي الألباب مع الإيمان بالأنبياء أجمعين ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ

(١) سورة التوبة: ١٢٨.
(٢) سورة الأحزاب: ٤٠.
(٣) سورة الحجر: ٩.

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

٥- كذلك اعترف القرآن ببالكتب السماوية السابقة وبيَّن قدرها بقوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًىٰ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[٢].

٦- كشف القرآن للناس حقيقة الكون والكواكب السماء وما فيها من إتقان في الخلق، ودقة في النظام، بقوله تعالىٰ في آيات متفرقة ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣]، ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٤]، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[٥]، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾[٦]، ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[٧]، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[٨].

---

(١) سورة آل عمران: ٨٤.
(٢) سورة آل عمران: ٣-٤.
(٣) سورة يس: ٤٠.
(٤) سورة السجدة: ٤.
(٥) سورة يونس: ٥.
(٦) سورة لقمان: ٢٩.
(٧) سورة يونس: ٥.
(٨) سورة النازعات: ٢٧.

ومع هذا الكون المتسع اللانهائي فإن الله يعلم كل صغيرة وكبيرة فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾(١)، ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾(٢)، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٣).

من ذا الذي يحيط بكل هذا إلا ذو الجلال والإكرام ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٤).

ومع هذه العظمة في المُلك والسلطان في القهر فإنه تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾(٥)، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٦).

٧- بيَّن القرآن للناس جميعًا أنهم أبناء آدم وحواء بقوله تعالىٰ:

(١) سورة سبأ: ٣.
(٢) سورة الزمر: ٦٧.
(٣) سورة الأنعام: ٥٩.
(٤) سورة الرحمن: ٢٨.
(٥) سورة النساء: ٤٠.
(٦) سورة سبأ: ٣.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾[2]، ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[4]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[5].

٨- تعرض القرآن بالشرح في بعض المسائل فكان هاديًا للبحث العلمي في تحقيقها حاليًا، ومثال ذلك تكوين الجنين في بطن أمه والأطوار التي يمر بها، بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[6].

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.
(٢) سورة النساء: ١.
(٣) سورة يونس: ١٩.
(٤) سورة الروم: ٢٠.
(٥) سورة الروم: ٢٢.
(٦) سورة المؤمنون: ١٢-١٤.

كما ذكر القرآن منذ أربعة عشر قرنًا أن ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1]، ولقد أثبت العلم الحديث أن الشمس وتوابعها من الكواكب العشرة وهي الأرض والقمر والمريخ وعطارد وزحل وغيرها تتحرك في الفضاء بسرعة ٧٥٠ ميل/ الدقيقة أي ما يزيد علىٰ مليون ميل في اليوم، ولا تزال هذه المجموعة الشمسية منذ بدء الخليقة تسير بهذه السرعة في الفضاء متنقلة من مكان إلىٰ آخر يوميًا.

قال الفتىٰ : بهذه المناسبة هل أستطيع أن أعرف ما حققه العلم الحديث بالنسبة للمجموعة الشمسية خاصة، والكون عامة، من معلومات علمية إن أمكن ذلك؟

قال الشيخ : يمكن أن نوضح بعض المعلومات كالآتي:

١- بالنسبة للأرض فقد أثبت العلم الحديث أن وزنها تقريبًا ٦٠٠٠ مليون مليون طن، وهناك نجوم وكواب أكبر من وزن الأرض بكثير، كما أن الأرض تدور حول محورها كل يوم من الغرب إلىٰ الشرق بسرعة فائقة، وكذلك تدور الأرض حول الشمس بسرعة ١٨.٥ ميل/ الثانية، وتقطع الأرض دورتها حول الشمس في سنة.

(١) سورة يس: ٣٨.

٢- كما استطاعت الأقمار الصناعية وسفن الفضاء أن تدور حول الأرض بسرعة أكبر من سرعة الأرض نفسها، أي أن تتم دورتها حول الأرض في ساعة ونصف ساعة.

٣- كما أن الموجات اللاسلكية تدور حول الأرض في ١/٧ ثانية وتصل إلىٰ القمر بعد 1/4 ١ ثانية، وإلىٰ الشمس بعد 1/4 ٨ دقيقة، وتسير هذه الموجات بسرعة الضوء وهي ١٨٦ الف ميل/ الثانية.

٤- ولو تخيلنا قطارًا يسير من الأرض بسرعة ٥٠ ميل/ الساعة لوصل إلىٰ القمر بعد ٢٠٠ يوم، ولوصل إلىٰ الشمس بعد ٢١٠ سنة، وهذا يعطي صورة تقريبية للمسافات الشاسعة بين الأرض والقمر والشمس، ويدور القمر حول الأرض مرة كل ٢٨ يوم بسرعة ٢٣٠٠ ميل في الساعة.

٥- أمكن إرسال سفن فضاء ونزلت علىٰ سطح القمر، كما أمكن تصوير الجانب المظلم من القمر، وكذلك الوجه المضيء. ونزل الإنسان علىٰ سطح القمر مرتين في عام ١٩٦٩ بمعرفة رواد الفضاء الأمريكيين.

٦- بالنسبة للشمس فهي كتلة نارية ملتهبة ويصدر منها بصفة مستمرة مقدار كبير جدًا من الحرارة والنور

تشع في كل جهات الفضاء، والذي يصيب الكرة الأرضية منه هو مقدار جزء واحد من ألفي مليون جزء تتبدد في الفضاء.

٧- أن الجاذبية بين القمر والأرض، وبينهما وبين الشمس، وكذلك مع المجموعة الشمسية، هي أساس الوجود للمجموعة في الفضاء.

٨- لتكوين فكرة عن الأسرة الشمسية، فلو عُمل نموذج للأرض بكرة قطرها ١٠سم فيكون قطر الشمس ١٠.٨٠ متر، وقطر القمر حوالي ٢.٥٠ سم أي ربع قطر الأرض تقريبًا.

ولقد ثبت أن مثل هذه المجموعات لاشمسية وأكبر منها بكثير يسبح في الفضاء باستمرار، فسبحان الذي خلق وقدَّر ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾[1]، وتبارك الذي بيده الملك وهو علىٰ كل شيء قدير، وهل يدرك العقل كيف خُلق هذا الكون، فلنتذكر قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾[2].

---

(١) سورة النجم: ٤٩.
(٢) سورة الرعد: ٢.

٩- إن هذا الكون كله بما فيه من كواكب وسماء ونجوم وأجرام، عظيمها وصغيرها، ومن جماد وحيوان ونبات قد سخّرها الله لبني آدم بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، ومع هذا فإن الإنسان ليطغىٰ ويكفر بأنعم الله، ويشقىٰ ويعجز أن يعلل كيف بدأت الحياة بدون الله إن لم يكن متدينًا.

وكل هذه المجموعات الشمسية والكواكب والمجرات تنتقل وتدور في الفضاء وتسير بسرعات مختلفة حسب نظام الجاذبية المركزية الطاردة، وكل فلك فيها يدور حول محوره ثم تدور الأفلاك حول مركزها الشمسي في مدارات مختلفة ومواقع محددة، ثم تنتقل كل يوم من مكان إلىٰ آخر، وقد وقف العلم حائرًا في هذه القوىٰ التي تربط كل هذه الأكوان وإلىٰ أين تسير، ومن عجب أن يكون هناك تشابه كبير بين هذه الأكوان الضخمة في صورها وهي تدور وتتحرك في مجالات دائرية أو محيطية، وبين الذرة في أصغر صور الكون وأصل وحدته في التركيب. فإن الذرة تحتوي علىٰ «البروتون» أي النواة التي يدور حولها الإلكترون بسرعة مذهلة وبينهما فضاء نسبي

(١) سورة الجاثية: ١٣.

مشحون بقوىٰ كهربائية ذات جاذبية هائلة كشف عنها البحث العلمي عند تفجير الذرة أخيرًا.

١٠- يقول أولو العلم والصيرة، ونحن بما يقولون مؤمنون، بأن هذه المجموعات والمجرات والكواكب والتي هي في حركة دائمة مستمرة تدور وتنتقل وهي علىٰ أبعاد مختلفة تحت مركزها الرئيسي الأعظم وهو عرش الرحمن الذي هو الشمس الكونية الكبرىٰ التي تمد هذا الوجود بجميع مقدراته من قوىٰ وأنوار فهو مصدر كل شيء فيه ومنتهاه، يوضح هنا قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْما﴾[1]، وكذلك قوله جل جلاله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[2] وهي سعة أحاطت بكل شيء علمًا، بل هي القوىٰ القابضة علىٰ نظام الكون في دقة وترتيب وعظمة، سبحانه مالك الملك يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ

(١) سورة الطلاق: ١٢.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[1].

قال الفتىٰ : يوم تقوم الساعة هل يتلاشىٰ هذا الكون العظيم بما فيه من شموس وأقمار وأرض وكواكب ونجوم؟ وكيف يكون ذلك؟

قال الشيخ : ذكر الله علامات الساعة بقوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلاَّ لا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[2] وهذا بالمعنىٰ العلمي أن تنعدم القوىٰ الرابطة بين الكواكب وهي الجاذبية فيحدث التصادم بينها وتلك نهاية العالم.

قال الفتىٰ : ومتىٰ يكون ذلك؟

قال الشيخ : علمها عند ربي، ولكن جاء في القرآن الكريم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾[3].

وقد ظهرت بوادر هذا الزمن بتفجير الذرة ومحاولة الوصول إلىٰ الكواكب الأخرىٰ بواسطة الصواريخ الذرية

---

(١) سورة طه: ٥-٦.

(٢) سورة القيامة: ٦-١٢.

(٣) سورة يونس: ٢٤.

وسفن الفضاء، وظن العلماء أنهم قادرون علىٰ ذلك في المستقبل القريب.

قال الفتىٰ : في حياة كل نبي حادثة هامة جديرة بالاعتبار، فهل يمكن أن أعرف رأيكم في ذلك؟

قال الشيخ : تسألني رأيي الشخصي ولا بأس من ذلك، وإليك الإجابة:

١- في عهد النبي محمد ﷺ فتح مكة.

٢- في عهد سيدنا عيسىٰ إحياء الموتىٰ وخلق الطير وإبراء الأكمه.

٣- في عهد سيدنا سليمان قصة الهدهد.

٤- في عهد سيدنا موسىٰ معجزة العصا التي تنقلب ثعبانًا، ويده التي تسطع نورًا.

٥- في عهد سيدنا يوسف تفسيره للأحلام. وكان ذلك سببًا في تقربه للملك وتعيينه وزيرًا له.

٦- في عهد سيدنا إسماعيل حادثة الذبح، وكانت امتحانًا قاسيًا للأبوة والابن نفسه.

٧- في عهد سيدنا إبراهيم إلقائه في النار التي لم تحرقه، وكانت منتهىٰ الإيمان والتوكل علىٰ الله.

٨- في عهد سيدنا صالح الناقة المبصرة، ولقد كانت معجزة صارخة ملموسة بأن تشرب من الماء ما يوازي ما تشربه جميع الأنعام في القرية.

٩- في عهد سيدنا نوح السفينة التي حملته في الطوفان.

١٠- في عهد سيدنا آدم الأكل من الشجرة الممنوعة، وكانت سببًا في خروجه من الجنة ونزوله إلىٰ الأرض ليعمرها ذريته.

قال الفتىٰ : ما هي المواقف العظمىٰ في حياة كل نبي؟

قال الشيخ : ليس من السهل حصر مثل هذه المواقف، ويمكن أن نذكر بعضًا منها علىٰ سبيل المثال:

١- عندما تكلم المسيح عقب ولادته مباشرةً فاطمأنت به أمه، وتولىٰ الدفاع عنها أمام السائلين، ولولا ذلك لتعرضت أمه مريم للرجم.

٢- عندما أنقذت امرأة فرعون موسىٰ وهو طفل من القتل المحقق بين يدي فرعون.

٣- عندما نام «علي بن أبي طالب» في فراش النبي «محمد» ليلة الهجرة فداءًا له من القتل المحقق.

٤- شهادة الطفل الرضيع ليوسف الصديق الت برأته من التهمة مع امرأة العزيز أمام زوجها.

٥- عندما همّ سيدنا إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل.

٦- عندما أحضر «آصف» وزير سيدنا سليمان عرش بلقيس من اليمن إلىٰ القدس في طرفة عين.

قال الفتىٰ : لقد جاهد النبي «محمد» ﷺ السنوات الطوال في سبيل الدعوة الإسلامية بين الناس، فهل تحمل مثل ذلك في سبيل نشر الإسلام بين الجن؟

قال الشيخ : لا.. بل أسلم الجن بمجرد سماعهم القرآن يتلوه النبي ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنـاً عَجَباً * يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً﴾[1].

وعالم الجن مثل عالم الإنس منهم المسلمون والمسيحيون واليهود، واللادينيون والشياطين.. ولقد ذكر عنهم في القرآن أيضًا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيم * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

ومما يُذكر عن الجن أنهم معمرون قد يبلغ الواحد منهم من العمر الألف سنة وأكثر، فمنهم من ان نصرانيًا علىٰ عهد عيسىٰ نفسه ثم عاش حتىٰ بُعث النبي محمد ﷺ

---

(١) سورة الجن: ١-٣.

(٢) سورة الأحقاف: ٢٩-٣١.

وأسلم وأصبح من مؤمني الجن الذين يدخلون الجنة زرفًا، وجاء في القرآن أيضًا عنهم ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[1].

قال الفتىٰ : لماذا لم يأتِ سيدنا محمد ﷺ بمعجزات خارقة مثل سيدنا عيسىٰ وسيدنا موسىٰ؟

قال الشيخ : لأن الدين الإسلامي أساسه الفطرة، يُحَكِّم العقل والفكر والنظر في الكون وما فيه من آيات بينات تدل بوضوح علىٰ وجود خالق لها أحكم صنعها وتنظيمها هو الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وما فيهن، فيؤمن الإنسان بربه عن اقتناع وحجة قوية، وعندئذٍ يتقبل دعوة الدين في يسر وسهولة، وخاصةً إذا كان الرسول رجلًا عاديًا من بين قومه ليأنسوا إليه ويتفهموا قوله ويصدقوه إن لم يكن في نفوسهم حقدًا أو في قلوبهم زيغ، ويصدق هذا علىٰ المسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار فقد كانت قلوبهم بيضاء ونفوسهم صافية بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2]، ولقد كان النبي ﷺ متحققًا بالبشرية

(١) سورة الجن: ١٣-١٥.
(٢) سورة التوبة: ١٢٨.

طول حياته وقد نزلت في ذلك الآية ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1]، وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّمَا أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة».

فكان الرسول مثل باقي الناس يأكل ويشرب ويسهر وينام ويفرح ويحزن ويمرض ويشفىٰ ويتزوج ويحب البنين والبنات مثل خلق الله جميعًا، فهو بحق رسول البشرية كافة والمتحقق بها، وذُكر ذلك في القرآن ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ۞ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[2].. ولهذا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

قال الفتىٰ : هل طالبت قريش سيدنا محمد ﷺ بإتيان معجزة؟ وماذا كان رده عليهم؟

قال الشيخ : حدث فعلًا أن طالبه قومه ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

(١) سورة الكهف: ١١٠.
(٢) سورة الفرقان: ٧-٨.

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾(١).

بهذا الرد الواضح أجابهم النبي ﷺ بأنه كواحد منهم ورسول من الله يبلغهم ما يأمره ربه، ولقد كانت في هذه الإجابة حكمة بالغة، لأن الأنبياء السابقين جاءوا بمعجزات باهرة ورغم ذلك رماهم قومهم بالسحر والتزييف.

قال الفتىٰ : لقد كانت مطالب المشركين من النبي محمد ﷺ مستحيلة.

قال الشيخ : فعلًا كان مستحيلة، وهذا دليل علىٰ منتهىٰ السفه والكفر منهم أن يطلبوا من النبي أن يحضر لهم الله وملائكته أمامهم، كذلك طلبت اليهود من النبي معجزة أخرىٰ فلم يعترفوا بنزول القرآن علىٰ الرسول بتلك الصورة بل طلبوا أن ينزل القرآن في كتاب مكتوب من السماء مثل ما نزلت التوراة في ألواح مكتوبة علىٰ سيدنا موسىٰ، ذلك قول الله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابـاً مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ

(١) سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[1].

قال الفتىٰ : بهذا هل يعتبر القرآن الكريم المعجزة الكبرىٰ للنبي محمد ﷺ؟

قال الشيخ : نعم هو معجزة النبي محمد بصفته أميًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة وجاء بهذا القرآن الكريم يبلغه للناس من قِبَل ربه بهذا الألوب البليغ في لفظه ومعناه، متحديًا به فحول الشعراء والأدباء من العرب ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، ولو كان محمد يعرف القراءة والكتابة لما أصبح القرآن معجزة، وورد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[3]. ثم كان التحدي المطلق بهذا القرين البليغ للعرب ومنهم العلماء والشعراء والحكماء بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[4]،

(١) سورة النساء: ١٥٣.
(٢) سورة النحل: ٨٩.
(٣) سورة العنكبوت: ٤٨.
(٤) سورة البقرة: ٢٣-٢٤.

كذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[1]، ثم كان التحدي الأعظم من قبَل الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2].

قال الفتىٰ : لقد تيقنا الآن أن النبي «محمد» ﷺ قد تحقق بالبشرية التامة، والقرآن الكريم هو معجزته الكبرىٰ التي تحدىٰ بها العرب، ولم يأت بمعجزات روحانية أو خارقة مثل موسىٰ أو عيسىٰ.

قال الشيخ : نعم. ولكن هذا لا يقدح في المقام الروحاني للنبي محمد، فإن روحه الشريفة ذات مدد عالٍ من الله وسر قدسي رباني يفوق كل ما كان وما سيكون، وليس هذا مقام الكشف عن ذاته النورانية، ويكفي أن الله سبحانه وتعالى بيَّن لنا مقامه المحمود في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[3] ويقصد بذلك سورة الفاتحة ذات السبع آيات المباركة الخاصة بالحد لله وأنه مالك الملك والرحمن والرحيم والمعبود والمعين والهادي إلىٰ الطريق المستقيم، كذلك وصف الله نبيه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً

(١) سورة النساء: ٨٢.

(٢) سورة الإسراء: ٨٨.

(٣) سورة الحجر: ٨٧.

لِلْعَالَمِينَ﴾[1] وهـي أكبر درجـات الكمـال للأنبياء والمرسلين لينقذ البشرية من الضلال والكفر إلىٰ الإيمان العلم والسعادة الدينية والدنيوية، كما أمر الله في آياته أن يتبع المؤمنون الرسول في سنته وتعاليمه لأنه لا ينطق عن الهوىٰ بقوله: ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[2]، ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3]، ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[4] هذه هي الرتبة العليا للنبي محمد ﷺ سجلها القرآن تكريمًا من الله لرسوله محمد، ومع هذا فقد جاهد النبي أكثر من عشرين عامًا وتحمّل المشاق والصعاب لنشر الدين الإسلامي وتمت له السيادة علىٰ العرب، والنصر علىٰ أعدائه، وتوفر له المال الكثير من الفتوحات والغزوات، ورغم هذا فإن سلوكه الشخصي لم يتبدل وظل في طباعه وأخلاقه لم يتغير عمَّا كان عليه قبل النبوة، كما قال عنه ربه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[5] فقد عاش محمد فقيرًا طول حياته متواضعًا كريمًا شجاعًا صادقًا أمينًا حليمًا رؤوفًا رحيمًا بالضعفاء

(١) سورة الأنبياء: ١٧٠.
(٢) سورة النساء: ٨٠.
(٣) سورة الحشر: ٧.
(٤) سورة الأحزاب: ٥٦.
(٥) سورة القلم: ٤.

عطوفًا علىٰ اليتامىٰ والمساكين، ولقد عجزت العقول عن الإحاطة الحقيقية بمقام النبي محمد ﷺ، وأبلغ ما وصل إليه أحد الشعراء الصوفية وهو «سيدي محمد البوصيري» في مدحه للرسول بقصيدته المشهورة بـ«البردة» بقوله:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ∴ وأنه خير خلق الله كلهم

قال الفتىٰ : مَن هم المؤمنون حقًا من المسلمين، ومَن هم عباد الرحمن الذين يشيد القرآن كثيرًا بفضائلهم؟

قال الشيخ : لقد وصفهم القرآن بصفات كثيرة بقوله تعالىٰ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾(١)،كذلك في موضع آخر بيَّن القرآن سلوكهم وأخلاقهم بقوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾(٢)، ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم﴾(٣)، كما جاء وصف المؤمنون في آيات أخرىٰ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

(١) سورة التوبة: ١١٢.

(٢) سورة المؤمنون: ١-٥.

(٣) سورة الذاريات: ١٧-١٨.

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1]، ثم ورد تخصيص في شمائل عباد الرحمن يُعرفون بها من بين الناس ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[2].

قال الفتىٰ : ما هي الآية القرآنية المحببة إلىٰ نفسك؟

قال الشيخ : ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3].

قال الفتىٰ : جميل أن يكون آخر مطافنا بهذه الحديقة المقدسة هو هذا النور المحمدي الذاي السماوي في جميع الأنوار المتلألئة القدسية في هذه الأقسام والأسماء فهي منه وإليه، ونسأل الله بارك وتعالىٰ أن يجعلنا مع الذين قال في حقهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا

(١) سورة الأنفال: ٢-٤.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣.

(٣) سورة النور: ٣٥.

﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

قال الشيخ : وما أجمل أن نرجو القارئ الكريم في هذه الخاتمة المباركة أن يتوجه بالدعاء إلىٰ الله تلبية لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٢)].

- ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[(٣)].
- ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾[(٤)].
- ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[(٥)].
- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[(٦)].

---

(١) سورة يونس: ٩-١٠.
(٢) سورة البقرة: ١٨٦.
(٣) سورة آل عمران: ٨.
(٤) سورة البقرة: ٢٨٦.
(٥) سورة البقرة: ٢٨٦.
(٦) سورة آل عمران: ١٤٧.

○ ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1].

○ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2].

○ ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[3].

قال الفتىٰ : آمين.. آمين.. آمين..

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلامٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

۞ ۞ ۞

---

(١) سورة الفرقان: ٧٤.

(٢) سورة الحشر: ١٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٤.

(٤) سورة الصافات: ١٨٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

تعقيب:

في هذه الغمرة المادية التي تلف العالم بدجاها فتصلى الإنسانية سعيرها وتقاسي شرها، وفي تلك الخطوب النكر التي تحمَّل الطغاة أوزارها تطل من بين السحب والركام أنوار باهرة تسعد الروح وتؤنس الأنفس وتبهج القلوب وتزيل ما بها من وحشة وخوف، هذه الأنوار الباهرة الزاهرة تتمثل في ذلك الكتاب القيم الذي تضيء سطوره بأنوار النبوة، والحديث عن الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

هذا الكتاب الكريم نفحة علوية روحية ربانية أخرجها لنا السيد الأستاذ أحمد الجبالي من قصص الأنبياء لتكون واحة ظليلة يأوي ظلها الظليل المجهدون والمكدودون الذين أشقتهم المادية وأتعبهم طوال السير في متاهات الظلمات.

ولقد جاء كتابه مليئًا بالحقائق والأسرار واللمحات الروحية والنفسية التي تدل على بُعد غوره وعميق إحساسه ولطف حسه وأصالة إيمانه.

ولقد اتخذ من الحيوان الذي جاء ذكره في الكتاب طريقًا فريدًا شيقًا يعبر منه إلى ذكر الكثير من الحقائق عن الأنبياء والمرسلين ليقدم للناس أحسن القصص وأحسن المثال وأصدق العظات وأهدى القدة وأجمل العبرة، ويبدأ بداية طبيعية بعهد آدم ثم عهد نوح وهكذا حتى عهد النبي «محمد» ﷺ كل ذلك في عبارة جزلة وأسلوب مؤثر، وقد

جعل القرآن له هاديًا وإمامًا يستشهد بآياته في عناية تامة وإحاطة شاملة وإنفاق بلغ الغاية في الدقة والشمول.

والكتاب بعد هذا يقدم دراسة نفسية لأشرف وأدق وأنبل العواطف الإنسانية، فعندما أُلقي يوسف في الجب، وعندما صرخ يوسف فزعًا من ذلك العمل، يقول الكاتب أن كل أم أصابها الفزع والهلع علىٰ وليدها، وتحسست كل أم وليدها كأنما تردّ عنه الروع وتدفع عنه الفزع. وهذا الخيال الرفيع يجعل من الكتاب أنموذجًا فذًّا فريدًا في عالم التأليف، وميزة هذا الكتاب أنه ليس للمسلمين فحسب بل يقرأه المسلم والمسيحي فيجد ما يثير الإعجاب ويبهر العقل ويغري بالقراءة.

كما أن الكتاب أيضًا مليء بالأبحاث التي تزيد المؤمن إيمانًا وتجعل الناس يتمسكون بقيم الفضيلة وأصول الأخلاق وخلال الخير، ويسبحون في جو عاطر بأريج الروح وحقائق الإيمان العليا. وليس من همي تفصيل كل ما احتواه الكتاب، ولكن القصد هو أن أدعو المثقفين إلىٰ قراءته وتدبره والإفادة مما يحتويه، ولا يفوتني أن أنوه بالمقارنة اللطيفة التي عقدها الكاتب بين عمل الأنصار ومواساتهم للمهاجرين، وإيثارهم إياهم بالمال والزرع، هذه المقارنة التي عقدها بين موقف الأنصار وبين اشتراكيتنا تستحق الإعجاب والإكبار.

وبعد فإلىٰ جانب ما يمتاز به الكتاب من دقة وسمو وإحاطة وشمول فإنه ينفرد بسمات تتمثل في خفة الظل وعظمة التشويق، ويستطيع القارئ أن يأتي عليه في جلسة واحدة.

لذلك فإن الكتاب يعتبر أحسن سمير، وخير صديق، وألطف رفيق، بمعزل عن الملل والسآمة والتكرار، ومن أجل ذلك فإننا نهنئ المكتبة العربية بذلك السفْر القيم مقدرين الجهد العظيم الذي بذله كاتبه، ضارعين إلىٰ الله أن يزيده توفيقًا وإقبالًا علىٰ هذه الدراسات رغم تبعاتها وما تكلفه من جهد ونصب، والله يجزيه خير الجزاء.

محمد الطنوبي

من العلماء بدمنهور

المراجــــع

١ - القرآن الكريم

٢ - التوراة والإنجيل

٣ - «إلىٰ القرآن الكريم» تفسير — محمود شلتوت

٤ - القصص القرآني — عبد الكريم الخطيب

٥ - قصص الأنبياء — عبد الوهاب النجار

٦ - قصص القرآن — محمد أحمد جاد المولىٰ

٧ - قصص الأنبياء — أبي إسحق أحمد الثعلبي

٨ - الطبقات الكبرىٰ للشعراني — عبد الوهاب الشعراني

٩ - اليواقيت والجواهر — عبد الوهاب الشعراني

١٠ - الإبــريز — أحمد بن المبارك عن عبد العزيز الدباغ

١١ - من الآيات الكونية في القرآن الكريم — محمد جمال الدين الفندي

١٢ - محمد وحقيقة الكون — محمود محمد صدقي

١٣ - محمـــد — محمد صبيح

١٤ - «محمد» الرسالة والرسول — نظمي لوقا

١٥ - بطل الأبطال «أبرز صفات النبي محمد» — عبد الرحمن عزام

١٦ - نساء محمد — سنية قراعة

١٧ - بنات الرسول — صلاح فريد

١٨ - العظة والاعتبار في حياة السيد البدوي — أحمد محمد حجاب

١٩ - الشهــادة — محمد إسماعيل إبراهيم

٢٠ - الكون العجيب — قدري حافظ طوقان

للمؤلـــف

١ - قصة موســـىٰ عليه السلام

٢ - جنة الحيوان في عهود الأنبياء

٣ - المـرأة في مجتمــــع الأنبياء

٤ - قصة صــوفية «ورد وسلمىٰ»

٥ - قصة موســىٰ السامــــري

٦ - «من الحياة» مجموعة قصص

بعض الأنبياء والمرسلين

آدم

إدريس

نوح

هود

صالح

إبراهيم

إسماعيل

محمد

إسحق

يعقوب

يوسف

الأسباط

شعيب

موسىٰ

داود

سليمان

أيوب

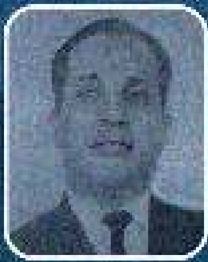
يونس

زكريا

يحيىٰ

عيسىٰ

محتويات الكتاب



مهندس /أحمد محمد علي عويس الجبالي

- من مواليد الشناوية في ٣ فبرايـر ١٩١٣ بني سويف.
- التحق سيادته بعد حصوله على الثانوية العامة بتفوق وبمنحة من الحكومة المصرية للدراسة بكلية الهندسة جامعة القاهرة وتخرج منها عام ١٩٦٣.
- التحق بالعمل بمصلحة المساحة المصرية، وتدرج في وظائفها حتى وصل إلى منصب رئيس مصلحة المساحة بمحافظات الأقصر والمنيا والقاهرة وشبين الكوم وأخيراً بدمنهور بالبحيرة.
- ونظرا لحاجة الادارة المحلية في بداية تطبيق قانون الإدارة المحلية الجديد إلى قيادات ذات مستوى كفاءة عالية. فتم إختيار سيادته مديراً للمكتب الفني وسكرتيراً عاماً لمحافظة البحيرة عام ١٩٦٢.
- تم ترقية سيادته للعمل نائباً لمحافظة الغربية حتى عام ١٩٦٨ ثم الإحالة للمعاش.